نافذة مستديرة لضوء القمر

رواية

محمود عبده

نافذة مستديرة
لضوء القمر

نافذة مستديرة لضوء القمر

محمود عبده

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

تصنيف الكتاب: روايـة

© دار الشروق

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

www.shorouk.com

dar@shorouk.com

رقـم الإيداع ٣٣١٠/ ٢٠٢٤
ISBN 978-977-09-3874-2

اللوحات الداخلية والغلاف: محمود عبده

محمود عبده

نافذة مستديرة لضوء القمر

رواية

دار الشروق

المحتويات

باب القبول ٩
باب الرحيل. ٤١
باب القمر (تحكيه سكارليت) ٧٣
باب البقاء ٩٣
باب الانكشاف (تحكيه سكارليت) ١١٣
باب المرسم ١١٩
باب الأوبرا (يكتبه ماو) ١٢٩
باب النقاء ١٤١
باب القهوة (تحكيه سكارليت) ١٥٩
باب الموت(يكتبه ماو) ١٦٩
باب الفَرح ١٧٧
باب اشتباك التفاصيل الصغيرة (تحكيه سكارليت). . ١٨٥
باب المرج الأخضر ١٩٥

الشخصيات بترتيب الظهور

مالك/ صوفيا/ موكا/ سكارليت/ ماو/
هوجو/ شون/ جابي/ ماري/ سيرينا

باب القبول

غير بعيد من قلب البراح، في مستهل الصباحات الرطبة أمضي، منتشيًا، وحيدًا بلا رفيق، كنت صغيرًا وكنت أحب أن أتأمَّل الكون وما فيه، أعبر على مهلٍ قنطرة قديمة عند أقصى المدينة، أخوض في شبورة البكور وأمشي محاذيًا ساحل البحيرة الصغيرة التي تصبُّ فيها قناتان وفي محيطها تصعد الأشجار وتنحني تحت السماء، تتشابك أوراقها الكثيفة لتصنع قبة بديعة من أرابيسك مشغول تنفلت من بين ثغراته شعاعات شمس عابثة. على المدى تبدو البحيرة كساحة مُغطاة بزجاج سائل، سميك ومتماوج، فوقها هواء أعرفه وتحتها عوالم أخرى، أسماك وأصناف من مخلوقات غير التي تمشي على الأرض، أُطِلُّ على النخيل البعيد المُغبَّر وعلى الشجر القريب بجانبي، أراقب الضفائر الرقيقة التي تتدلَّى منه إلى سطح البحيرة، لا يتوقف النسيم عن مراقصتها وهي تلتمس الماء الذي تحتها فلا تصل ويبقى عطشها مستمرًّا ولا ترتوي أبدًا، في أيامي التالية ـ بعد سنوات ـ سوف تُذكرني بها زخارف فارسية تحتضن محرابًا مقدسًا في بلد بعيد.

أواصل المسير والتأمل، ينقضي نصف نهار ويكتمل وتنقضي نهارات أخرى كثيرة وكلها لطيفة ومتشابهة، تقترب مني الكائنات من كل صنف بلا خوف فتغمرني مشاعرُ الألفة والانتماء، ثم تنقضي سنوات، ثم يأتي يوم ليس ككل الأيام، كنت هناك عندما تنامى

صخب العصافير وتغيرت نغماتها، تحوم في الأنحاء ولا تكف عن الصعود والهبوط، طيور أخرى ويمامات تتخذ مسارات وتتحرك في الهواء على غير اعتيادها، تمر نسمات برائحة لطيفة لا يكاد الأنف يلتقطها حتى تتلاشى، فوق سطح البحيرة تتحرك موجات صغيرة ودوّامات هنا وهناك، وفي الأنحاء يختلط الواقع بالحلم في تدرُّج غير محسوس ويزحف غيام على الإدراك، تعقبتُ الأحداث قدر إمكاني إلى أن رصدتُ في الأغصان الممتدة حركة طارئة وفي باقات الأوراق التي في أطرافها رفيف غريب، ثم بدأت الحركة تهدأ وزحف سكون، ثم لانَ غصن وهفهفت أوراقه وأنا أمعن النظر وإذا بعينيّ تقعان عليها، كائن لطيف غير محدد بين بينَيْن، أنثى أو ملاك، تتخذ على الغصن مجلسها بوزنها الرهيف، تتلفت وترسل عينَيها في كل الأنحاء قبل أن يكتمل جلوسها، بيضاء كالزغب، كندفة ضوء فرَّت من شمس، ترفُّ على جبينها خصلة كأنها تريد أن تطير، بين برهة وأخرى تتكثف أمام وجهها سحابة صغيرة من زفيرها لا تلبث إلا قليلًا حتى تتبخر، تذوب في الهواء وتمنحه رائحة رائقة لا مثيل لها.

شيئًا فشيئًا يهرب مني الواقع ويحل محله وعي من نوع آخر لست آلَفه، أو ربما أنهما يمتزجان معًا، تنفتح في بدني أسرار لا حكم لي عليها، برفق أرتقي ويتسلمني الفراغ فأطفو كريشة تحملها هبّة هواء، أصل إلى هامات الشجر أو أعلى قليلًا، أنتهك سكون العصافير واليمامات خلف الأستار ولا يتوقف تغريدها ويظلُّ ينساب من هناك، ثم ينكشف لي بعض ما خفيَ فيمتلئ

صدري بشغف إلى مزيد، يجتاحني الهواء البارد ويخترق ضلوعي فأرتجف ولا يلبث إلا قليلًا حتى يذيبه تيار دافئ.

ينفسح البراح حتى يصير إلى لا منتهى.

كنت قد رأيتها كجسد يوشك أن يشفّ فيرى ما وراءه، وجهها بالغ الرقة وتجلس في مواجهة هبّات النسيم، ولاحَ لي أنها لم يُعرف لها من قبل اسم ولا صفة ولا حكى عنها أحد على وجه الأرض، ثم رأيتها وهي تمدُّ أصابعَ بالغة الدقة في الفراغ الذي يقابل حضورها اللطيف وتلتقط من الهواء ما لا يراه سواها، بعضًا من مكوناته، تكثفه وتنسج منه رسومات بديعة لمخلوقات لم يرَ أحد مثلها، وتوشك أن تتحرك، ثم لا تنتهي قبل أن تضحك الدنيا لضحكها وتنسجم الأكوان فتحرِّك أصابعها المرهفة من جديد، تضرب بها ضفاف النسيم فيذهب ما صنعته ويخلي براحًا جديدًا لبدائع أخرى تطلقها في كونها الصغير، ثم إن كل هذا مسّ قلبي فتناولتُ قلمًا وورقًا وصرتُ أرسم، أنظر إليها وأفعل مثلما تفعل، ثم إن بعض الخطوط طاوعتني وبعضها عصاني، ولم أنتهِ عند ذلك بل امتلأ محيطي بأوراق ولوحات وأحبار ورسوم.

ثم غامت ثم غابت ولم يملأ فراغها شيءٌ إلا أسئلة بلا حصر، هل كانت ملاكًا نورانيًّا.. طيفًا بلا جسد؟ وهل كان مدى إدراكي متسعًا بما يفوق ما اعتاده البشر العاديون؟ وهل ضاق فيما تلا هذا حتى لم أعد أراها؟

وفي الليل أحلم من جديد أن وقتًا طويلًا يمضي، وأن فقدًا يُغالبني وأني أبتاع حقيبتيْن؛ إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وأني

أملأ الكبيرة بالأمل حتى تنتفخ، وأني أملأ الصغرى بأوراق رسم وأقلام وريشات وأحبار ومستلزمات ارتحال، أسافر إلى بلد غريب وإلى بلد أكثر غرابة، وإلى بلاد كثيرة بعضها قريب وبعضها بعيد.

وأحلم ببلد بعيد وفيه حديقة يرتادها ناس وطيور وكائنات أخرى، لها في كل جانب باب، وعند بابها البعيد جدارٌ عالٍ ومصمت، لم أعرف أن السقوط من فوقه أمر مريع إلا عندما صعدتُ ومشيتُ فداخلني خوف، وكنت متعجلًا وكنت شغوفًا بشيء لا أعلمه، وفي الحلم نثرت حفنة من أمل فوق رأسي وخطوتُ بلا ثقة، يلفح الهواء وجهي وتحت قدمَيَّ زيت وماء، لو لم أنتبه للحظة لانزلقت، ورأيت رجلًا نحيلًا يجلس فوق حجر وينظر إلى شيء لا أراه وينتظر، ورأيت رأسًا فوقه طائر والطائر يغرِّد والرأس يستمع وينتظر، ورأيتُ حصانًا يلوي رأسه للخلف ويحكّ ذقنه برقبته الجميلة وينتظر، وفي الفراغ القريب منه سمكة خضراء وثمرة كمثرى، ورأيت الأرض ممتدة سمراء وفوقها تتناثر نجمات بحر بيضاء تنتظر، ورأيتُ بيوتًا ملونةً وقصرًا أبيضَ وشجرًا طويلًا تخرج منه عصيّ رفيعة أكبر قليلًا من أشواك في غصن وردة تنتظر، ولكنني في النهاية اعتدت المكان فصرتُ أجوبه كل يوم، فأما الحديقة فقد وقع عشقها في قلبي، وأما البلد الغريب فقد ألفته حتى صار كأنه وطن، وأما الخيال والواقع فما زالا يمتزجان.

وبمرور الوقت ترسَّبت عندي قناعة بأنني خُلقت على السفر، كما لو كنت نوعًا من الكائنات لا يلائمه استقرار، وكلما تعمقت

في بحث الفكرة وجدت فيها منطقًا؛ فأبي مولود في مدينة وأمي في مدينة أخرى والتقيا وعاشا في مدينة ثالثة، وفيها عشت طفولتي ثم درست في مدينة رابعة وارتحلتُ إلى مدن أخرى وبلدات مكثت في كل منها لأزمنة قليلة قبل أن يجذبني شيء ـ أو أشياء ـ غامضة إلى مدينة خامسة فأبقى فيها لسنوات ظلّت مرشحة لازدياد، وظللت أيضًا طوال مدة بقائي فيها لا تغادرني فكرة الرحيل عنها ولا أتوقف عن تأنيب نفسي التي ركنتْ إلى موضع واحد، لولا أن علاقات تنشأ وأمورًا تحدُث ثم تُفضي إلى أن يتلازم الناسُ بعضهم مع بعض، ثم إن رغبات تولد وصداقات تتكوّن وتأتي أشياء أخرى كثيرة تستغرق الحياة وقتًا طويلًا لتفصح عنها، ونستغرق نحن الكائنات وقتًا أطول مما كنا نتصوَّر حتى يصير إدراكها واستيعابها حقيقة.

وكنت قد عرفت أن المدن والبلاد كالناس، لكلٍّ منها ملامح وروح وشخصية رسخت عبر الزمن وتشكَّلت من آثار مَن سكنوها ونشطوا فوق أرضها أو مائها، ومن بينها ما كنت أجد له روحًا لطيفًا ينفذ إلى القلب ليستقرَّ، ومنها ما كان ثقيلًا يستعصي على القبول؛ ولذلك فإنني في أي مدينة وضعت قدميَّ كنت أحرص على أن أجوب أنحاءها وأفتش عما يلزمني فيها وما يغنيني، وعادة ما كنت أبدأ بالميادين والشوارع الواسعة، أتفقدها ثم أمشي عبر الشوارع الخلفية بهدوء أكثر، أقطع المدينة طولًا أو عرضًا لأعرف خباياها في أيام معدودة، كأني أتقمص روح وشخصية رحّالة جديد ومعاصر.

أرصد الملحوظات وأسجِّلها؛ إما مرسومة أو مكتوبة، وأحفظها عندي، حتى احتلت جانبًا مهمًّا من حياتي وأماكن سكني، وكان

يحدث أحيانًا أن أرجع إليها لأستعين ببعض ما تحتويه من رصد لأحوال الناس، أو حتى بعض الرسومات التي كنت أنسجها من مشاهد لا تتكرر سوى في موضعها حيث اطلعت عليها، الآن لم أعُد أحمل دفاتر للرسم لأسباب طرأت على حياتي، لكنني أكتب كثيرًا.

لا أنسى واحدة من المدن التي زرتها تعوَّد أهلها على أن تتخذ عمائرهم طرازًا وشكلًا واحدًا، بل لونًا واحدًا لا يغيِّرونه، أربكني هذا كما لم تربكني أي مدينة من قبل، وعلى الرغم من ذلك تسللت رائحتها عبر مسامّ جلدي ولم تغادر، وجرَّبت أن أترك نفسي للضياع في شوارعها كلما أتيحت لي الفرصة، فبقيتُ أجوب الشوارع وأجتاز الجسور الحجرية المقوَّسة التي تعبر قنواتها ولا أتوقف إلا إذا شعرت بالجوع، عندها كان يبرز لي وبشكل تلقائي واحد من مطاعمها الصغيرة أو حتى عربة لبائع طعام متجوِّل، ربما من زقاق ضيق أو ممرّ بين بنايتيْن، أو كوخ على شاطئ بحيرة أوغير ذلك، مطاعم تبدو كأوكار صغيرة، كأن أصحابها وروَّادها يريدون الاختفاء بداخلها، وهم حتى لا يعلنون عن أنفسهم ولا يضعون لافتة ولا إشارة تدلُّ عليهم، رغم ذلك لا يفرغ المكان من مرتاديه، وكل الوجوه هناك تألفها بسرعة وتشعر ـ لا تعرف كيف ـ بأنك تنتمي إليهم.

حدث هذا في غالبية البلاد التي مررت بها، وربما أنني كنت أنتقي من الأماكن أثراها وأقدمها، وأنني اعتدت أن أخطو بهدوء وأترك رائحة المكان تتسلل إلى أنفي إلى أن أجد مكانًا أو ركنًا ينتظرني، وفي غير مرة أجد أحدًا ترتسم على وجهه ـ أو على وجهها ـ ابتسامة، وأحيانًا كنا ندرك كلانا أن قدَرًا رشحنا للقاء واحد،

أول وأخير، قد نمده ليوم آخر أو يوميْن لكننا أبدًا لا نحدد موعدًا للقاء ثانٍ، نتبادل أشياءَ مما لدينا وربما نأكل معًا أو نشرب شيئًا من مأكولات القوم أو مشروباتهم المطعمة عادة بشفرة البلد، ونعتبر هذا من لوازم الترحال التي لا غنى عنها، نمَط من الترحال يتيح للشخص تشرب الخبرات والتاريخ البشري في أبسط صوره، أكرِّره كثيرًا وطالما جرَّبته حتى في المدينة العتيقة التي استبْقتني لسنوات، وصار وجودي في شوارعها التي لا تنتهي كثيفًا إلى حدِّ أن كثيرًا من ناسها عرفوني وعرفوا مواعيد مروري المتكرِّر، بل إننا صرنا نتبادل التحيات كلما وقع نظر أيّنا على الآخر كما لو كنا على معرفة قديمة ووقعت بيننا ألفة كانت لطيفة على الروح، رغم ذلك ظللت أعُدُّ نفسي على سفر، كراكبٍ ينتظر طائرته التي تتجهَّز لرحيل لا يتوقَّف، أنتظر ولا أنكر أن شغفًا بهذه المدينة قد أصابني حتى تمكَّن مني وصار من مُتعي اليومية أن أجوب شوارعها، واخترعت تسليات شتى ومُتعًا أخرى تفريعًا من هذا لأمارسها في هذه التمشيات.

ولطالما ظلَّت ـ وما زالت ـ هذه الحالة؛ حالة الارتحال، تدغدغ مشاعري وتستنفر لديَّ طموحات الفرجة واختزانًا لا حدَّ له للمَشاهد والصور.

ولأنني أحببت الرسم وانغمست فيه منذ الصبا، ثم درسته وتخصَّصت فيه وألقيت بنفسي في بحاره الواسعة، فقد صار واحدًا من الأشغال التي تناسبني تمامًا هو أن أجلس إلى ورق أو لوحات، أترك نفسي ولا أنتهي إلا إذا نفدت قائمة الرسوم التي كُلفت برسمها، وكلما نفدت كنت أعيد ملأها بقائمة جديدة، وصار مخزون رحلاتي المتراكم منهلًا دائمًا لكل ذلك، وتضاعف نهمي

الدائم لملئه بكل جديد، بل صار ذلك النهم في ذاته متعة سبيلها الأكثر أهمية هو المزيد من التّرحال، حتى إنني راودتني رغبة قوية في إيقاف الزمن المتدفِّق حتى أستطيع أن أجوب كل مكان يمكنني أن أصل إليه، أسجل ملامحه وأجرِّب كل الشوارع وكل الطرقات وكل الأطعمة، وأقرأ كل ما كتب هنا وهناك ولا أملَّ من ذلك.

وكثيرًا ما كان الناس يكلمونني عن رسومي التي أجعلها على الجدران أو بين صفحات الكتب، يخبرونني أنها أخذتهم إلى مدن غريبة لا يعرفونها أو أن شخوص الروايات التي رسمتها صاحبتهم في جولات قصيرة هنا أو هناك، في أماكن لم يروْها من قبل، ناموا تحت هذه الأسقف أو مشوا في تلك الشوارع، تأملوا في اتّساع هذه السماء أو قطفوا من تلك الزهور، لامست أناملهم هذه البشرة الناعمة أو لفتهم ذلك الشعر الكثيف بينما تبعثره هبّات الهواء.

أما تلك الأوقات النادرة التي لا أنشغل فيها بالرسم، فعادة ما كنت أترك نفسي للموسيقى تغزل أنحاء من روحي من جديد وتعيد صياغتها، كما أنني أحيانًا ما كنت أنفتح قليلًا على زملائي في العمل، وربما يحدث أن ألحظ تغامزًا خافتًا من زميل أو زميلة أو حتى تنمُّرًا ظاهرًا من آخر، وكثيرًا ما كنت لا أنتبه إلا إذا كثفوا الجرعة لأفهم أنني المقصود، وبقدرٍ من التأمل أستطيع أن أفكَّ شفرة تغامزهم لأكتشف أنهم يشيرون إلى قصة أكون مشتبكًا ـ من حيث لا أدري ـ فيها، علاقة على قدر ما من الجدية.

وكانت تتغير عليَّ تلك القصص كتغيُّر الفصول عبر السنة، بل كانت تتوالى كما تتوالى الفصول أيضًا بلا توقف، ولا أعجب إن أفضت

واحدة منها إلى نهاية فاجعة أو مربكة، ولا توشك تنتهي إلا لتبدأ قصة أخرى مع واحدة أخرى ذات جاذبية من نوع أو آخر، وفي كل مرَّة لا ألبث إلا قليلًا حتى يراودني هاجس الأحداث المقبضة التي تتوالى لتصل بكليْنا إلى النهاية المحتومة؛ فراق أو خصام أو إهمال، لكن كل هذا لم يكن ليفسد لي مُتعًا عدة لا تخلو منها قصة حبّ، ومنها متعة نَسج الشِّبَاك وطرحها على مسارات خطى مَن أستهدف، أو حتى متعة التقاط الإشارات والعلامات التي تضعها مَن تكون موضع اهتمامي بحرص وهدوء، أتتبع التكتيكات التي تستخدمها وأسعد بالمناورات التي ربما تفتعلها حتى تقوم بعمليات استكشاف ضرورية، واكتسبت مهارات في متابعة كل ذلك وفي تلقي مُتع الأشياء الأولى اللافتة؛ لمسات أو قُبلات أو غير ذلك مما هو شائق ولطيف.

وفي هذه المساحة من الحياة جرَّبت أشياءَ كثيرةً ومرَّت بي أصناف من الناس شديدي التنوع، وكان يحدث أحيانًا أن تنتهي علاقة ما لأسباب غاية في العجب أو الطرافة أو حتى خفة العقل، ولم يكن هذا يؤلم كثيرًا؛ فقد كانت النهاية تثبت من تلقاء نفسها أنني ـ أو أن كليْنا ـ قد دخلناها بالخطأ، فلا يناسب أحدنا الآخر؛ لذلك لم تكن لتنتهي قط ببُغض، بل إنها عادة ما كانت تفضي إلى صداقة جديدة رغم الألم المتحقق، بل وتتخذ طرازًا خاصًّا ثم إن ذكريات حلوة تبقى، نتشاركها ونسترجعها كلما توفرت مناسبة، إلى أن أصاب التغير ذات مرة هذه القاعدة الثابتة.

ومع مرور مزيد من الوقت، وتقلُّب وتتالي الفصول، لم تعُد تؤلمني كثيرًا تلك النهايات، بل ربما أمكنني القول إنني صرت

أمضي إليها كما يمضي مغدور إلى حتفه الذي لا سبيل إلى استبداله، لا أطمح إلَّا إلى قدر من الرحمة وقدر من اللطف، واستطعت أن أغلب مشاعر الحزن وأن أجد في كل لحظة من لحظات العلاقة التي أكون منخرطًا فيها براحًا ترتاح إليه نفسي، وأهَّلني هذا لامتلاك قدرات ذهنية لم أمتلكها من قبل، فكنت أجلس في سكون أحلل الأحداث والكلمات والأفعال وأربط بينها وأستخلص منها خيوطًا تقودني إلى النهايات وإلى الخلاصات فلا أفاجأ، وعلى الرغم من كل ذلك كانت تتبقى في الحلق من أثرها حبات صغيرة من الملح، وفي ظروف متنوِّعة لم أستطع أن أرصدها بدقة كان ينجم عنها انقباض لا أرتاح له، وتظلم مناطق من السماء حتى لو كانت الشمس ما زالت في كبدها، ولم يكن ينتزعني من هذا إلا الرسم الذي انغمست فيه كليًّا منذ طفولتي الباكرة وذهبت لأتعلم عن أساليبه وطرقه، ثم وجدت نفسي أحترفه حتى وأنا ما زلت أدرسه.

وبالإضافة إلى الثراء الكبير في قصص الحب الفاشلة كنت أحب أن أجمع مشاريعَ طموحة، أخوض فيها أيضًا بنفس روح الارتحال التي كانت تتملكني في أحيان كثيرة، ولا أبالي إن انتهى في يدي المشروع إلى شيء لا يمكن بيعه، مُنتَج ليس له جمهور ولا زبائن وليس إلا متعة صافية، أقتفي في هذا أثر عصفور خُلِق ليغرِّد ولا يسأل مَن يسمعه أجرًا ولا مقابلًا.

وتعوَّدت أن أكون منظمًا جدًّا فيما يتعلق بهذه المشاريع، لا أبدأ أبدًا في أحدها إلا بعد صياغة تصور عام أكتبه في أسطر قليلة على ورقة واحدة أعلقها أمامي وأتركها لأيام تطول أو تقصر، عندما يأتي الوقت الذي تقع عيناي عليها لمرَّة أخرى أجد زخمًا تكوَّن

في داخلي، وأفكارًا ومحاور أخرى تخصُّها وقد صارت أكثر وضوحًا، ثم أنتظر من جديد إلى أن يأتي يوم لا أجد فيه ما أفعله لأقوم ببحث أكثر شمولًا، وأنتهي إلى خلفية أكثر عمقًا عن عناصر المشروع ومكوناته، وتلوح أمام عينيَّ شبكة طرق تنفيذه وكيف يمكنني أن أعالجه بأساليب جديدة ومبتكرة، ولا تكتمل متعتي إلا إن فرغت نفسي تمامًا لأعمل عليه بتفانٍ إلى أن يوشك على الاكتمال أو يكتمل، ثم أخصِّص له درجًا في مكتبي أو حيزًا في كمبيوتري مع مشتملاته كافة، وتظلّ الأدراج تزداد واحدًا وراء الآخر حتى إنني ابتكرت شفرة لونية لكل درج بحسب نوع المشاريع التي يحتويها، وكنت أهتمّ كثيرًا بتنظيم وترتيب أوراقي ومشاريعي وعلاقاتي التي لا تنتهي منذ وعيت، أحرص على فهرستها وعلى وضعها دومًا في مكان يسهل استرجاعها للعمل عليها حين تبرز الحاجة إلى ذلك، ويحدث أن تصيب بعض هذه المشاريع شيئًا من التوفيق والرزق فتنتقل إلى رتبة مشروع حقيقي يخرج إلى الناس، بينما يبقى بعضها الآخر ينعم بهدوء الدرج، أما العلاقات المخزونة فتبقى رصيدًا دائمًا من الخبرات وفي عمق كلٍّ منها نموذج أستعيده أحيانًا وأنا أتأمل أنحاء حياتي أو ربما وأنا أشرع في علاقة جديدة.

عند ناصية شارع قريب محل للملابس أمرُّ من أمامه بشكل شبه يومي، دخلته قبل السفر بأيام، في أجنابه مرايا كثيرة أمرّ من أمامها فألمح شبحًا يشبهني ويصحبني من بعيد في تجوالي، عند صف القمصان المشجَّرة توقفت فتوقف معي، ملت فمالَ معي، ثم تناولت قميصًا منها وتناول معي، كانت المرة الأولى التي أرى فيها نفسي كل هذا الوقت في دقائق قليلة، أمعنت النظر للحظات

أخرى إضافية فرأيت شخصًا غير الذي كنت أعرفه، لا هذا وجهي ولا هذا أنا، تحسست بشرتي لأتعرف على تلك الأخاديد الرفيعة التي شقّت لنفسها مسارات متعرجة هنا وهناك، تحسّست بنطالي والحديدة اللامعة في طرف حزامي ووجدت أنها ذهبت إلى اليسار أبعد قليلًا من الموضع الذي كانت تنتهي إليه، حتى هذه لم أعتد أن أنظر إليها وكنت فقط أتفقدها بشكل عابر، لا بد أنني صرت أنحف قليلًا، وساعتها قلت لنفسي مواسيًا: لا بأس؛ فإن الأشياء تتغيَّر. لكن هل هذا حقًّا أنا؟ حتى لو بقيَ الشكل كما كان، فهل هذا ما كنت عليه قبل سنوات؟

يكبر الناس وتتغير ملامحهم، تتغير طبائعهم وتصرفاتهم، لكن هل تذهب أرواحهم وتأتي بدلًا منها أرواح أخرى غير التي كانت، قد تتغيَّر الطرق والبيوت والمدن والأرض والسماء والملابس وأنواع الجبن والمأكولات والخضار والفواكه، كل شيء، لكن ماذا بخصوص الروح؟

عندما التقيت عددًا من أصدقائي القدامى وجدنا أنفسنا نستعيد كثيرًا من ذكريات المدرسة الثانوية، تسرَّب من ثقوب الذاكرة كثير من الأمور، لكن أشياء أخرى بدا أنها استعصت تمامًا على التسرُّب، كثير من التصرفات غير المعقولة التي كنا نقدِم عليها، أحيانًا منفردين وفي مرَّات أخرى كثيرة ونحن معًا، تصوراتنا البلهاء عن العالم وعن العلاقات وعن الناس، جلسنا نتذكر كيف أن أشياء عديدة حينها كان من شأنها أن تجعلنا ننفجر في ضحك مستمر لا تبدو له نهاية، حتى إننا لم نكن نريده أن يتوقف أو أن ينتهي، وساعتها وبلا تخطيط مسبق ولا اتفاق وجدنا أنفسنا نحاول أن نتصرف على هذا النحو،

لا بدَّ أن منظرنا العام في حديقة المقهى الصغير الذي جمعنا أوحى للآخرين بأنهم يشاهدون أشخاصًا قد تعاطوْا أو شربوا شيئًا مُسكرًا قادهم إلى هذا الحال، جرينا بين الأشجار المزينة بلمبات ملونة وأثرنا قدرًا غير قليل من الهرج، تدافعنا وسقط بعضنا فوق النجيل الأخضر وعلا صوتنا بضحك يشبه الضحك القديم، كنا جميعًا أقران دفعة دراسية واحدة تخطيْنا بالكاد مرحلة الشباب الأهوج بقليل ولا بد أن ملامحنا كانت تشي بعمرنا، رغم كل شيء لم يكن لمحاولاتنا تلك طعم الأيام القديمة، بعضنا حاول أن يصطنع، لكني وآخرين لم ننجح في هذا.

فوق الرصيف الأسمنتي الرطب جلسنا متجاورين، وتحدث بعضنا عن أشياء مقبضة صارت تحدث لهم بعد تغير نمط الحياة التي كنا عليها من الاستقلال إلى الارتباط طويل الأمد، لم يُصبني هذا التغير كما أصابهم؛ فما زلت مستقلًّا وكنت أفكر أن القدر كان رحيمًا بي فلم يدفعني إلى هذا، رحيمًا بشكل ما، فلديَّ متاعب من نوع آخر ومنغصات تأكل شرائح كاملة من ذهني ولا أستطيع أن أصل معها إلى نهاية معقولة، على التوازي مع حديثهم العام كان يجري بداخلي حديث آخر غير مُعلَن بدا كما لو كان جدول مقارنة، ففي مقابل كل مأساة صغيرة لديهم كانت لديَّ مأساتي الخاصة، يختلفان في النوع لكن يبقى لهما نفس الأثر المنغص، اشتركنا أيضًا في أثر منغص آخر هو أثر النجيل الأخضر الذي لا بدَّ أنه لوَّث مَقعداتنا كما كان يحدث في زمن الصبا.

في المنزل بعد انتهاء السهرة، فكرت كثيرًا وأنا أعِدّ عشائي، ثم وأنا أعِدّ قهوتي، ولم أعرف حقًّا هل تقدمت في العمر لدرجة

جعلتني أفقد قدرتي على ممارسة المرح والانخراط في تفصيلات الحياة، أم أن العالم من حولي قد تغيَّر وصارت للمرح قواعدُ أخرى لم يخبرني أحدٌ عنها شيئًا!

في يوم تلقيت تكليفًا بإنجاز رسوم لرواية جديدة، كانت الرواية عن قصة حبّ من النوع مُفرط الرومانسية؛ حيث تتألم البطلة لأن البطل لم يكلمها وتتألم لأنه كلّمها، يؤذي مشاعرها أنه لم يكن ينظر في عينيْها ويؤذي مشاعره أنها تنظر بعيدًا عندما يعاتبها، يجرحها أنه يكلم واحدة أخرى غيرها وتدفعها الغيرة لأن تعاتبه فيتأذى من ذلك... وتتوالى الأحداث وتتداعى إلى أن يفترقا ثم يعودا، ثم يفترقا ثم يعودا، وحزن وألم ودموع حتى تكاد أوراق الرواية تبتلُّ من أثر ذلك، رغم كل هذا يميِّز الرواية لطفُ أسلوب الكاتبة وطريقتها المميزة في غرس قدر من الكوميديا حتى في أكثر المواقف غرابة، هي نفسها روحها وأسلوب تفكيرها لا يبعدان كثيرًا عن الذي كتبته، وهي تجد قدرًا كبيرًا من المعقولية فيه.

أحببتُ الرواية لطرافتها ولأن هذا النوع من الأحداث الناعمة يتيح لي أن أصوغ مشاهدَ مرسومةً عامرةً بالحركة والتعبير، أتصوَّر أني أصنع ستوري بورد(*) لفيلم سينمائي في مراحل إنتاجه الأولى وأغرق في الاستمتاع، أما المؤلفة فقد ترسَّخ لديها إيمان عميق بما كتبت، وثقة هائلة بأنها سوف تكتسح أسواق الكتب وتتصدَّر قوائم

(*) ستوري بورد (Story Board): مجموعة من الرسوم المتتالية التي تقدِّم تصورًا شاملًا لمشاهد الفيلم وتطور أحداثه.

البيست سيلر لسنوات قادمة ولن يزيحها إلا عمل جديد لها، وفي الحقيقة كنت منبهرًا بكمية الشغف والدوافع الذاتية التي لديها، في وقت كان شغفي يوشك على النفاد بعد سنوات قضيتها في هذه المهنة أمزج الرسوم بشذرات من روحي ومشاعري، بل إنني في جانب آخر من حياتي كان شغفي الكبير بشوارع المدينة وخباياها وأدق تفاصيلها وأسرارها يوشك أن يفارقني، وصرت لا أحفل بمَن يدعوني إلى تمشية ليلية بأزقتها أو بمَن يزفّ إليَّ كشفًا لتفصيلة مبهرة بإحدى مآذنها أو قبابها أو بوابابتها القديمة التي دأبنا على زيارتها بين حين وآخر.

على غير العادة المتبعة في عملي أصرَّت المؤلفة على مناقشة الرسوم التي سأقوم بتنفيذها، فبدأنا نلتقي في حرِّ الصيف في حديقة محل قهوة شهير ونقضي وقتًا نناقش فيه المشاهد المقترحة للرسم، وهي عادة ما كانت تأتي بصحبة صوفيا، قدمتني إليها وعرَّفتها بأنها صديقتها المفضلة منذ الصغر، الغريب في تلك المناقشات أن صوفيا هي التي كانت تقودها دائمًا كأنها هي صاحبة الرواية، ترفض أو تقبل وتغيِّر وتبدِّل وإليها وحدها ترجع المؤلفة لتحصل على موافقتها على كل شيء تقريبًا، كل هذا لم يكن يعنيني كثيرًا لأنني به أو بغيره كنت سأنجز عملي، لكنه كان لافتًا. في البدء لم يكن في المسافة القصيرة بيننا عبر المنضدة إلا تنافر ثم بقدرة قادر تحوَّل إلى قبول.

صوفيا كانت شديدة اتساع العينيْن كأنما كُتب عليها أن تظل تبدو في اندهاش مستمرّ، ولا بدَّ أن الله وضع فوق عينيها

هذه الرموش الكثيفة لتؤكد على هذا المعنى وتقوِّيه وحتى يُذكِّر الناس بها كلما غابت عنهم قليلًا، لديها أيضًا شعر أسود قصير تقصه على الطريقة الفرنسية، تتحرك كثيرًا في كرسيها وتستخدم يديْها وأصابعها برشاقة لتوضح ما تريد قوله، عندما كنا نناقش صفات شخصيات الرواية فإنها كانت تتحدث عن كل شخصية بفهم عميق لدوافعها وأهدافها والخيارات التي كانت أمامها عبر مراحل الرواية وتطورات الأحداث، في داخلها قاموس للحالات النفسية، وكنت أفكر وأنا أستمع إليها تتحدث أنها لا بدَّ أمضت وقتًا طويلًا تقرأ أو تدرس كل هذا إلى أن أتقنته، تنتهي إلى تصور لملامح الشخصية والتعبيرات التي يجب أن تكون على وجهها وتعبيرات جسدها في موقف ما، لم يكن كل هذا بعيدًا عن تصوري، ولم أكن حقًّا بحاجة إلى كل هذه الدقة في الوصف، فلم أكن مبتدئًا في رسم مثل هذا النوع من الروايات، في كل المرَّات التي جلسنا نناقش فيها مثل هذه الأمور كنت أبذل جهدًا حتى لا يتسع نطاق المناقشة أكثر مما يجب، وفي الأغلب كنا نصل إلى نقطة وسط بين ما تراه وما أراه ونجد أنفسنا متفقين عليها، وفي وسط هذه المناقشات لاحظت أنها تدافع عن واحدة من شخصيات الرواية وكأنها تدافع عن نفسها، تتبنى قضيتها وتبادر إلى شرح وتوضيح تصورها في مختلف المواقف. في البداية بدا الأمر غامضًا بدرجة ما وأوشكت أن أتصور أن صلة ما تربطها بهذه الشخصية، بعد مزيد من المناقشات عندما وجدتها تُبدي تفهمًا لشخصيات أخرى في الرواية وتشرح دوافعها بدأت أدرك الكثير عن حسها المرهف وعن ذكائها الاجتماعي والعاطفي، عندما عُدت إليهما ذات يوم ببعض

الرسوم للرواية توقفت كلتاهما عند واحدة من الشخصيات وتبادلتا النظرات، ثم رأيت ضحكات صغيرة لم أفهم سببها، بعد أن وضع النادل طلباتنا من القهوة والمياه رفعت المؤلفة الورق في مواجهتي وأشارت إلى وجه شخصية الرواية الرئيسة، أنا نفسي فوجئتُ بأنها تشبه صوفيا كثيرًا وقلت لهما إنه شبه غير مقصود وإنني لا أمانع في إعادة الرسم، لكن الأمر انتهى بأن اتفقنا ثلاثتنا على أن نعمِّم هذا لتستعير الشخصية الرئيسة وجه صوفيا في كل الرسوم، واستلزم هذا تمضية بعض الوقت في جلسات أرسمها فيها حتى أتمكن من ملامحها، وكانت هذه الجلسات من ألطف مكاسبي في هذا المشروع؛ فقد مكّنتني من أن أبحر بداخلها لأعرف عنها الكثير.

في مرَّة في أول اللقاء تركتهما وابتعدت قليلًا لأنهي مكالمة تليفونية جاءتني، عندما عدت وجدت النادل يضع الطلبات ومن ضمنها قهوتي التي اعتدت أن أطلبها، وقد جهزها بالطريقة التي أحبها وبصنف البُن الذي أفضِّله ومقدار السكر الضئيل فيها، وكنت في كل مرة أصفها للنادل ويستغرق وقتًا لكي يستوعب طريقتي غير المعتادة، لم أنتبه لما حدث إلا عندما عُدت إلى المنزل وتذكرت الأمر، شعرت بالامتنان للمسة اللطيفة وشكرتها في المرة التالية فخفضت رأسها في خجل، بعد ذلك وفي مرات متعددة في وسط الحديث كانت ـ كلما جاءت مناسبة ـ تشير إلى تفضيلاتي في أمر ما كأنها تعرفها جيدًا؛ مثل مسألة أنني أفضِّل السفر بالقطار عن القيادة لمسافات طويلة، أو أنني توقفت تمامًا عن ارتداء ساعة يد منذ سنوات، أو أنني أفضِّل ارتداء الجينز كلما أمكن حتى في المقابلات الرسمية، بل إنها صارت تنتبه أيضًا لأشياء أخرى بسيطة

أحرص عليها عادة دون أن أنتبه لها، في مرة عدَّلتْ اتجاه كوب القهوة إلى وضعي المفضَّل بعد أن تركه النادل في اتجاه معاكس، شعرت بالامتنان لهذا أيضًا وأردت أن أردَّ لها لمساتها اللطيفة تلك بالمثل فأهديتها في مرة تالية قالبًا من الشوكولاتة الفخمة. أحبتها كثيرًا، وكان هذا إيذانًا ببدء مرحلة من الحياة حفلت بكل أنواعها الموجودة في السوق، وخضنا حينها حوارات طويلة ناقشنا فيها مكوناتها المختلفة وكيف تضاف النكهات وكيف تُعجن وكيف تُصبّ وكيف ترسل إلى الأسواق وتفاصيل أخرى كثيرة حتى ظننت أننا سنُمتَحَن في كل هذا أو نتقدم فيه برسالة لدرجة الماجستير.

وفي مرَّة أخرى ذكَرتْ ملحوظة أنني أُفضِّل حلاقة ذقني في المساء وليس في الصباح؛ وكان هذا صحيحًا، قالتها بشكل عابر في وسط حديث عام عن عادات الناس ومتلازمات تصرفاتهم، عندما التقت أعيننا بعد هذه الملحوظة بالتحديد طرأت رعشة طفيفة على جفنيْها واستقرت لثوانٍ ثلاث لمعة فوق مقلتيْها وكنت أعرف هذه اللمعة جيدًا وما تدلّ عليه.

ثم انتهى العمل ونُشرت الرواية وبدأتُ أشعر بالفراغ الذي حدث والذي عادة ما كانت تشغله جلساتنا في محل القهوة طوال الفترة التي سبقت، اتصلت بالمؤلفة لنلتقي بحجة مناقشة رد فعل القراء على الرواية واتفقنا على موعد جديد، عندما ذهبت إلى محل القهوة لم يكن هناك إلا صوفيا وحدها، أما المؤلفة فقد اتصلت لتعتذر عن عدم الحضور، راودني الشكّ أنها غابت عن قصد لكن هذا لم يكن مهمًّا، تحدث أشياء كهذه، بعد ذلك استمرَّت لقاءاتنا

كما كانت وأكثر؛ أعني أنا وصوفيا فقط، وعندما دقّقت الأمر وجدت أنها مسَّت قلبي وتحرَّكت لها مشاعري وأشرقت الأيام من جديد بها ومعها، وفي تلك الفترة رسمتُ لوحات أخرى كثيرة كانت هي جزءًا مهمًّا منها، إنْ بالشكل أو بالإيحاء.

ثم تطورت الأمور وتوثق ما بيننا كثيرًا وكنت أوشكت أن أنسى طعم التقبيل وفنياته فتذكرته من جديد حتى إنه صار طقسًا يوميًّا لا غنى عنه، وبشكل لم أتعود عليه تلازمنا لفترة أطول بكثير مما كان يتوقع أحد، وبدأت أظنّ أن هذا التلازم ماضٍ إلى ثبات مستمرٍّ وتجاورٍ لقلبيْنا معًا، بدأت حتى أناقش نفسي في مفاهيم كانت قد استقرت عندي فيما يخصّ كثرة التنقل والتّرحال والبحث القلق عن عوالم جديدة ومكتشفات أخرى في محيطات بعيدة لا أعرفها، مجاهيل كثيرة تتعلق بالسفر والهجرة والتّرحال المستمرّ كنت أُكنّ لها اعتبارًا وأنوي تنفيذها كلما أمكن، وجدت أنني أستبدل كل هذا بما من شأنه أن يقرِّب بيننا وأن يطيل تلازمنا لمدى أبعد.

وحينها ظننت أن هذه العلاقة هي علاقة النضج التي لن تلاقي مصير ما كان قبلها وأن عمرها سيطول أكثر وأكثر، وكنت ـ وما زلت ـ أفكر أن الحب الناضج يشبه الطعام عندما يُترك على نار هادئة مناسبة، يلتئم بعضه ببعضه وتظلّ تمتزج نكهاته ثم تتسرَّب وتفوح رائحته لتملأ المكان، وكنا نجد أثر ذلك واضحًا في الأعين التي تتعلق بنا وتتبعنا أينما كنا ويحدث همس وإيماءات.

لكن الوقت مرَّ سريعًا، ثم آلَ كل شيء بالتدريج إلى هبوطٍ وزوال، قالت صديقتها إنها تكلمت معها كثيرًا، وجدتها وقد فقدت

قدرتها على تصديق أن أحدًا يمكنه أن يُحبَّها بصدق، وأوضحت أيضًا أنها تظنّ أن هذا الشعور قد استغرق وقتًا طويلًا لكي ينمو وينضج بداخلها، وجادلتها كثيرًا في أن ما بيننا كان قد وصل إلى تخطّ كامل لكل ما سبقه سواء عندي أو عندها وهذا ما كنت أظنه بالفعل لكن ثبت أن بعض الظنون ـ حتى هذا أيضًا ـ إثم، والأمر لا يمكن وصفه بدقة كاملة لغرابته الشديدة، لكننا طوال فترة تعارفنا وتقاربنا كانت قد دأبت على أن تُقدِم ثم تتراجع وتكرِّر هذا كثيرًا، تقترب ثم تبتعد وتمد خيوطًا ثم تسحبها، عبر كل هذا كنت أنا أحتفظ بهدوئي وأدّعي لنفسي أنني خبير كبير في العلاقات، وأنني سوف أستطيع تلافي أو مقابلة كل ما يهدِّد أمن وسلامة واستقرار الأوضاع، ثم أجلس بثقة مَن لا يعرف إلى أي مدى هو واهِم، أستكمل بناء مزيد من التصورات والأحلام الناعمة اللطيفة، لكن هذا كان زمن الارتباك العظيم؛ حيث لا يستطيع أحدٌ أن يدرك بدقة لماذا يحدث ما يحدث.

وعرفت فيما بعد أن آثارًا وتداعيات من تاريخ نفسي سابق دأب على مهاجمتها بلا رحمة بين حين وآخر، أسد من الماضي يكمن لها وينتظر فرصة تحين وينطلق إليها، ينشب مخالبه في كتفيْها وأنيابه في رقبتها حتى تختنق، يصيبها اكتئاب وفزع ويغلب عليها انعدام الثقة حتى تصبح أيّ محاولة للاقتراب أكثر إيلامًا من الابتعاد، الحالة كلها كان يمكن تفهمها والتعامل معها لولا أن مضاعفاتها كانت أكثر شراسة مما توقعت بكثير، العالم أيضًا لم يرحمها والأصدقاء أهملوها، بالخطأ ظنوا أن مرحها الذي لا تتخلى عنه علامة أمان فصرفوا عنها اهتمامهم والتفتوا إلى شئونهم ومشاكلهم، والعالم

قاسٍ لا يرحم، والمصائب ـ كما هو معروف ـ لا تأتي مفردة، لكنها تأتي في موجات تغمر جهة ما، بكل ما فيها ومَن فيها، ولا بد أن موجة قد باغتتها فلم تترك فرصة لأحد أن يدركها، كان الأمر ثقيلًا وفوق كل تحمُّل.

من أحلامها التي حكتها لي في وقت سابق هو أن تسافر لتستكمل دراساتها، وتَلاءم هذا معي ومع حبي للسفر المستمرّ، في يوم كان طقسه رائعًا في شهر نوفمبر صادفتُ على الإنترنت إعلانًا عن منحة دراسية في بلد شمالي بعيد تناسب تخصصها فأرسلته لها وهي راسلت الجامعة وراسلت برنامج المنحة وعلقت عليها آمالًا كبيرة، لم أكن أحب بلاد الشمال كثيرًا ولم يسبق أن راودتني بشأنها تطلعات، وكنت أنظر أكثر جهة الشرق؛ حضاراته الأولى وبلاده وحكاياته.

استلزمت المنحة مستوى محدد في اللغة، واستتبع هذا أن تنتظم في دورة مكثفة وأن تسجل لامتحان ختامي، وظللت معها في كل هذا، في بعض الأيام كنت أترك عملي وأرافقها ثم أنتظرها ثم أوصلها ثم أحادثها لأشجعها ثم أتابع معها ما أنجزت وما تبقى لها، إلى أن اقتربنا من إنجاز المهمة، وثّقنا الأوراق وأرسلناها وسجلنا للمنحة وجلسنا نلتقط أنفاسنا وننتظر، وبعد أيام جاءتها الموافقة، في أثناء كل هذا كانت تتغير ببطء دون أن أنتبه، كأن عاصفة تختبئ فيما وراء الأفق.

في المنزل جلستُ أمام التلفزيون أشاهد فيلمًا تافهًا، عندما انتهت أحداث الفيلم وظهرت كلمة «النهاية» على الشاشة جاءني

اتصال على الخط الأرضي، على الطرف الآخر بدأت صوفيا حديثها بهدوء ثم تغيَّر شيئًا فشيئًا، تكلمتْ عن كونها لا تشعر بالتقدير المناسب وعن أنني غير راغب فيها بما يكفي، وعن أشياء أخرى كثيرة كنت أسمعها منها للمرَّة الأولى، في منتصف الحديث بدأت أشعر بالخدر والتجمد يزحفان من صدري إلى رقبتي إلى أعلى رأسي.

انتهى الحديث إلى أنها طلبت مني بحسم ألا أتصل بهذا الرقم ثانية أبدًا، صمتُّ أنتظر منها أن تتراجع عن هذا ولم أغلق الخط حتى مات وحده، ثم بدأت على الشاشة فقرة إعلانية يظهر فيها الممثل السخيف الذي انتشر في كل الأفلام والمسلسلات، وفور انتهائه بدأ من جديد، وظل ينتهي ويبدأ وينتهي ويبدأ، تتغيَّر على وجهي ألوان وأضواء الشاشة وأنا غارق في بحر بلا قرار أحاول الوصول إلى أي شاطئ ولا أستطيع، حينها لم يخطر لي على بال أنها هي التي ستعود للاتصال، ولو بعد زمن لن يكون قريبًا، استنزفني الإعلان المتكرِّر على الشاشة وشعرت بالإنهاك التام، تركت التلفزيون في سرمديته وانطفأت في مكاني.

كنت قد بلغت مستوًى من النضج والتجربة جعلني مؤهلًا لأن أفهم أن الأنثى هي التي تختار، وهي التي تسمح للرجل بالاقتراب، تفتح له الباب وبشكل ما ترشده إلى الطريق الذي يوصل إليها، تسلمه المفاتيح ثم تمنحه قلبها ومشاعرها، كل هذا كان يمكن فهمه وتصور أبعاده، أما ما يستعصي على الفهم دائمًا وأبدًا فهو كيف ترفض وكيف يمكنها في لحظة أن تنقلب من وضع

إلى نقيضه، ربما حتى تظل تنتقل من هذا إلى ذاك وأنت لا تملك من الأمر شيئًا، صحيح أنه يمكن التقاط علامات من هنا أو هناك، إلا أن ضمَّها معًا في سطر واحد لا يضمن أبدًا أن يعطيك المعنى نفسه الذي تنتهي هي إليه.

مع ذلك، وبعد هذه المكالمة الأخيرة، لم تختفِ تمامًا، ظهرت من جديد على الفيسبوك بعد فترة وظللت أتتبع أطرافًا مما تكتب عن مستجدات حياتها: تضع صورًا لها في معالم البلد التي ذهبت إليه، وصورًا على الجليد، وصورًا أخرى في الكريسماس ومناسباتٍ أخرى، ظللت أيضًا أراها في أحلام قصيرة متناثرة لا تربط بينها مناسبة، بمرور الوقت توقفتُ عن التفكير المستمرّ فيما جرى وأمكنني أن أصرف نفسي إلى جهات أخرى كلما لاحَ لها ظهور، صارت تغيب بشكل كليّ عن تفاصيل يومي.

مَن منا خذل الآخر؟ لا أعرف، ظل السؤال بلا إجابة حتى الآن، في العموم أنا لا أكتب لأشكو ولا حتى لأستعيد آلامي أو ذكريات مُعذِّبة، لا لا.. لا شيء من هذا، أنا فقط شخص أحبّ التأمل، أحب أن أدرس الأشياء، بعد قليل سوف يجتاحني الملل وأبحث عن شيء أكثر فائدة لأفعله، فعلى الإنسان أن يعتبر الملل دافعًا إيجابيًّا ومحرِّكًا دائمًا للبحث عن مخرج، وهذا أيضًا من الحِكَم التي لا تُجدي نفعًا!

لعلّي أخطأت في شيء وتسببت في إيذائها، لكنني حقيقة لا أعرف أي نوع من الأخطاء ارتكبت، لا أكابر ولا أنكر، ورغم هذا يجلدني أحيانًا إحساس بتأنيب الضمير.

تجاه كل هذا لم يكن عندي أي شيء أستطيع أن أفعله إلا الانتظار، وطال انتظاري حتى بدأت روحي تنقبض من مجرد التواصل العادي مع المحيطين بي، في كل مكان ذهبت إليه ومع أي شخص تكلم معي أو تكلمت معه كنت أجد غمامة ثقيلة تشوِّش عليّ ما أريد قوله وتشوِّش على الأفكار التي يرسلها الآخر، تتحول الحياة تدريجيًّا إلى مكان شديد الغرابة، حياة ينقصها الكثير من الحياة.

وبدأت أفكر في أن مشاعرَ أو أحوالًا انتقلت بالعدوى إليَّ حتى صرت في حالة أقرب لحالتها، ومرت شهور ثم سنوات بلا تغيير، وفي كل هذا لم أنتبه إلى تقديري لذاتي الذي أخذ في التآكل حتى ربما لم يبقَ منه شيء، صديقي المخلص الذي يحب الأقوال الحكيمة ولا ينقطع عن ترديدها على صفحته على الفيسبوك كتب ذات يوم: لن يعتني بك أحد ما لم تعتنِ بنفسك، وصدمتني العبارة كما لم يصدمني أي شيء آخر.

جلست أنظر إلى مئات القلوب التي أخذت تتوالى عليها، وعشرات التعليقات التي بدأت تظهر من أسفلها وأتأمل في مدى عمقها ومصداقيتها، فيما سبق هذا في كثير من أيامي الصعبة كانت بعض الكُربات تنفكّ بنوع من الرسائل أجد به المؤانسة وبعض التوجيه، حتى تلك الرسائل التي كانت تأتيني بالنجدة في كثير من الأحيان لم تستطع أن تقدِّم عونًا يُذكر، سأظل أنتظرها وأتتبعها.

كان من عاداتي منذ الصغر أن أتلقى رسائل لا أعرف مُرسلها، تأتيني في توقيتات وفي أماكن لا أتوقعها، فكرت كثيرًا أن هذا

قد يكون تصرفًا خفيًّا من عقلي الباطن وهو يحاول أن يُعيد لى اتزانًا تُفقدني إياه جرائر الأيام أو مفارقات البشر والأحداث، وعندما اجتهدت في تذكُّر مجريات الأحداث وتسلسلها وجدت أنها لم تكن تأتي إلا بعد أن تغيب عني أحداث أو وقائع مؤلمة ويغيب عني أثرها وأي شبهة انتظار أو تصور لها، أدركت أن هذه الرسائل أمرٌ مستقلٌّ عن إرادتي وأنه لا يعمل وفقًا لأي تدخل مني أو من عقلي الباطن، وبطرق عديدة توثقت من هذا، بعد هذا الفراق العجيب بيني وبين صوفيا بدأت الرسائل تأتيني بوتيرة أكثر كثافة عن ذي قبل، تطرح عليَّ اقتراحات بالعودة إلى التّرحال الذي فارقته منذ سنوات، غواية جديدة قديمة مجربة ولا تخيب أبدًا.

ثم صارت تأتيني الرسائل بمعدل أكثر من المعتاد، بعد أن كانت تأتي على أيام متباعدة أخذت تجتاح أيامي بإيقاع متسارع حتى صرتُ أتلقى العديد منها في اليوم الواحد، في البدء كان محتوى الرسائل لا يخرج عن صفة النصح الخافت كأنه إيحاء خفيّ، ولأن طُرقي في تلك الأيام لم تكن وعرة بشكل يخرج عن المألوف، فقد كانت الرسائل في مُجملها يُغلفها كثير من اللطف واللين، ثم تدرج هذا الغلاف وتنوعت صفاته بما لم يكن محسوبًا لديَّ، ولم تتوقف الرسائل عن دسِّ نفسها في شئوني كافة حتى أدَقّها، بل على وجه التحديد أدَقّها، وتطوَّر في داخلي نوع من الترقب الذي يشبه قدرًا من هواجس الخوف المخلوط بالأمل بنِسَب دقيقة، صار الأمر كأنه متلازمة نفسية ربما لم تكشف عنها الأبحاث بعدُ.

ورغم أنها ـ في أغلب أحوالها ـ دأبت على أن تكسر صمت وجفاف وحدتي، فقد كانت تغرقني في دوامة لا تكاد تنتهي

من التفكير وبحث مجريات حياتي وعلاقاتي حتى لا تكون صدمتي كبيرة في قريب أو مهم من الأمور.

أما طبيعتها، فلم تكن تخلو من غرائبية يصعب هضمها أحيانًا؛ فأحيانًا ما كنت أراها كأنها مشهد من فيلم ملوّن تختلط بغيمة من بخار يتكثف على مرآةٍ بعد حمّام دافئ، وربما تخايلني في قاع كوب ماء فوق مائدة في مطعم، ربما تتخذ شكل كرات صغيرة تتحوَّل إلى وجوه يُكلم بعضها بعضًا ويُثيرون موضوعات تشغلني، وربما تأتي على شكل صور وخرائط على جدران كوب قهوتي وتتسع هذه الجدران حتى تصير شبيهة بخرائط جوجل التي تمتدّ بغير انتهاء، وربما تأتي في سطر مكتوب بنور خافت في الأفق.

ربما تكون محورَها أحداثٌ تدور في الأماكن التي أعمل بها، مؤامرات أو دسائس أو حتى مشاعر جيدة يحرص البعض على إخفائها، أمور كثيرة يصعب حصرها أو وصفها حتى لأنها ترتبط بموضوعات وقصص متفرقة لا يتسع مجال لذكرها.

ثم حدث أن تلقيت رسالة فارقة، كان وقعها في حينها كأنها واحدة من ضربات القدَر خرجتْ لتوها من سيمفونية بيتهوفن، ومفادها أن فراقًا على وشك أن يجتاح الأيام، وأن نمطًا مجربًا ومعتادًا من شأنه أن يتغير، لم يكن بالرسالة ما يشير إلى جهة التغير أو طبيعته، لكنها وبطريقة ما، ربما لفرط غموضها، اكتسبت وَقْع هجران أو خسارة أو تلف، ولأني لم أجرِّب شيئًا من هذا في سني الباكرة أيامها فقد ارتبكتُ واختلَّ تقديري.

ولم يمضِ وقت طويل حتى وقع ما جاء في الرسالة موقع الحقيقة ووقع الفراق.

رافقتني الرسائل إلى كل الجهات التي رُحت أجوبها، وهنا، حتى بعد أن أخذت تُشرق عليَّ شمس هذه المدينة النائية، واصلت تلك الرسائل نبش أيامي.

في مرحلة ما اختلطت مشاعري ولم أعُد أعرف هل من الأفضل أن أتخلص من سطوتها وتأثيرها، أم عليَّ أن أبقى أتتبعها كمسافر يتتبع نجمًا كدليل ارتحال دائم يتعلق بالسماء لأجل أن أتعلق به فأنجو!

في الحفل الذي أقمناه احتفاءً بالرواية تلقيت انتقادات وتعليقات كثيرة على الرسوم، الرواية نفسها لم تسلم من النقد، شيئًا فشيئًا تحوَّل الاحتفاء إلى ما يشبه حفل التأبين، حرص بعضهم على قتل الرواية في أول ظهور لها وشعرت بشيء من الفزع، لا بدَّ أن شيئًا ـ مهمًّا ـ أو أشياء كثيرة تغيَّرت في هذه الحياة التي كنت أظنّ أنني أعرفها.

لم يخبرني أحد من قبل أن الحياة كلما تقدّمت بالإنسان تكدَّست في أنحائها وتكتَّلت صفوف من المتاعب غير المنتظرة، ووجدت أن الدنيا قد امتلأت بالفقد وصار كل ما كان يملؤها من أشياء حلوة يخلي أماكنه لفراغ يمتدّ في كل اتجاه.

تلقيت بعد ذلك تكليفات بكتب أخرى عديدة ولوحات متنوعة، وحاولت بجهد كبير أن أستنفر طاقتي للعمل، في رسومي كان هدفي الأسمى أن أضطرَّ مَن يراها إلى أن يغني تأثرًا، كمَن ينصت إلى موسيقى تمرّ إلى قلبه وعقله عبر عينيْه، كنت أعمل حقًّا على هذا

بشكل جاد، لكن ما حدث فعلًا هو أن شيئًا من الكآبة تسرَّب إلى الرسوم وبدا أنه أفسد مفعولها، ربما حتى وهبها تأثيرًا معاكسًا، لا أفهم الأمر بدقة؛ فقد كنت أجد صعوبة في الانشغال بالتحليل والتفكير في أثناء عملي في الرسم؛ ولذلك فغالبًا ما كنت أكتفي بأن يطويها الوقت فتغيب، غير أنني وبشكل ما كنت واثقًا أن خطأ ما يحدث ولا يتوقف عن الحدوث، بل يتصاعد تأثيره بغير أن أفهمه بشكل كامل.

وفي كل هذا رأيت كيف تحدث مآسي العالم، وبالتدريج انفطر قلب الكون وأسفر عن فجوة في المكان وفي الزمان ولم تعُد بعدها الأشياء على نفس هيئتها، بل إن فراغًا نشأ في قلبي وأخذ يتسع حتى صار بحجم شجرة كبيرة، تتسلقها القطط العابرة في النهار وتأوي إليها العصافير في الليل وتنزف في كل خريف أوراقًا كثيرة وفي الظهيرات الحارة يستريح تحتها المارَّة وعند الشفق ربما يجلس تحتها عاشق ينعي ما أصابه.

ورُحت أقتني الأشياء بكثافة، كأني أتعرَّف من جديد إلى العالم، أو كأني أبحث فيه عما فقدت، آلات أو أدوات أو بقايا من هذه أو تلك، أدرسها وأعجب بقدرة مَن صنعها على الابتكار، كل ما يوصل إلى الغايات بمشقة أقل أو بلا مشقة، أجمع فناجين القهوة المكسورة وألصق أجزاءها فيعود إليها تألقها القديم، تنبعث منها روائح شجن وتحوم من فوقها أفكار نيئة لم يصبها اكتمال، أغطية الزجاجات الفارغة، تذاكر المواصلات والسينمات، القنينات

المستديرة الملونة، عرفت الطريق إلى مَن يبيعون كل قديم، وسجّلت أرقامهم وعرفت مواعيدهم، بقايا أشرطة السينما التي يقصها الرقيب، فوق رفٍّ طويل أرصها على هيئة أسطوانات صغيرة، فوق رفٍّ آخر تجاورت أعداد من الأحصنة البلاستيكية الملونة بسروجها وفرسانها وعدتها، خلفها كميات من القطارات الصغيرة المصنوعة من الصفيح، كومة من أذرع النظارات المكسورة، وبمرور الوقت اكتسبتُ خبرات ومعارف شتى لم تتيسر لي من قبل، عرفت أن أذرع النظارات اليسرى تنكسر بأضعاف ما تنكسر الأذرع اليمنى، وعرفت أن الأحصنة البلاستيكية لا تصهل حتى في مواسم التزاوج، ثم تعلمت أن أقتني بقايا الكتب الممزقة، أعيد تجميعها فتتصل موضوعاتها وتتخذ القصص التي بداخلها أشكالًا وحبكات جديدة لا يتصورها أحد، ووجدت في كل هذا كثيرًا من العزاء وبعضًا من السلوى، وتنامى الأمل عندي أن يبقى الأمل وأن تستوطن هذه السلوى محيط تواجدي.

ثم جاءت حقبة أخرى تالية تغيرت فيها عاداتي، فصرتُ أهلًا للتخلي عن كل ما اقتنيته وعن كل ما تبقى من أشياء لم تكتمل، وبدأت أعتنق نظرية أن كل سيرة لم تترك في القلب أثرًا لطيفًا أو في الروح ذكرى مبهجة فالمحو بها أولى، وترتَّب على هذا أن تراكمت على الأرصفة قِطَع متكسِّرة من صداقات وبقايا مغبرة من علاقات تشققت ولم تعُد تصلح للتناول وتناثرت حولها الفناجين والقنينات والأشرطة وأذرع النظارات وكثير من النوايا والنظرات واللمسات المبتورة.

وبدأت أرى الأيام وهي تنفلت وتهرب دون أن أعرف إلى أين، دون أن أراها أو أسمعها وحتى دون أن أعيشها، تظهر المذيعة الملونة على شاشة النشرة الجوية لتعلن برقة أن طقس اليوم خاوٍ ولا شيء فيه، ليس ثمة دفتر رسم يتأمله اثنان بينما يعبث أحدهما بقلم ملوَّنٍ بين أصابعه، وليس ثمة أحد يطرِّز الصفحات بتكوينات ساحرة، لا بحيرات ولا أشجار ولا أغاريد، لا مزيد من غبار الدهشة ولا أنفاس يبهرها الترقب.

ثم اكتسبت عادات وفارقت خصالًا وتركت أشخاصًا والتقيت أشخاصًا آخرين وواعدت وأحصيت ونسيت وتذكرت، واعتدت في كل يوم قبل غروب الشمس أن أحمل شريحة من قلبي وحفنة من الهمِّ وأشياء أخرى صغيرة وأمضي أجوب الشوارع وأنثرها هناك.

ثم وضعتُ قدم المغادرة في باب الرحيل، عند المَخرَج المؤدي إلى الطائرة، تأمَّل الرجل المهذَّب أوراقي وطابق البيانات ثم ختمها، وقرأ الرجل التالي اسمي المكتوب بخط أسود سميك على الحقيبة: مالِك، فقط مالِك؟

أومأت له برأسي فأشار مفسحًا الباب الزجاجي السميك إلى ممرِّ الخروج.

باب الرحيل

في البلد المَداري في شتاء لطيف، وتحت شمس دافئة وخجولة مشت في مسار متعرِّج بين قدميَّ وعبر خطواتي، تمسح فراءها البنيّ بكلتا ساقيَّ، رافقتني إلى مكاني المعتاد في الحديقة، جلستُ وبقيتْ أمامي ثم علقتْ عيناها الواسعتان بي، مددتُ كفي فترددتْ قليلًا ثم ارتقت الهواء واستقرَّت فوق رجلي، بقيت تحثني على مداعبتها، تفرك رأسها في يديَّ حتى غادرني التوجس وتجاوبت معها، تركت نفسها كليًّا بين أصابعي وبدا أن صداقة جديدة نشأت للتو، ربما فقدت ذويها أو فقدوها، ربما أنها بقيت تبحث عن روح تستظلّ بها إلى أن جمع بيننا الطريق.

ـ كلنا غرباء فلا تبتئسي يا.. قطة.. يا عم.. يا أخ.. يا أخت.. انتظر.. مَن أنتَ حقًّا؟

نظرتُ.. يا للصدمة!

فتاة!

ألا تخجلين؟

ظلت تشاغلني وأداعبها والوقت يمضي والسحب تكثر في السماء وتطفئ شمسها حتى بدا أن مطرًا غزيرًا مقبلًا، جمعت أوراقي وأقلامي في حقيبتي واتخذت مساري عائدًا إلى الفندق، أشفقت عليها وأخذتها معي.

في بهو المدخل يحلّق سرب من فراشات ملونة، تقترب واحدة من المصابيح المتدلية فيكبر ظلها على الحائط وعلى السقف ثم تبتعد لتعود إلى طبيعتها، والقطة رأت هذا فأصابها هوس وتعلقت عيناها بكل حركة، تنتفض كلما لمحت فراشة تقترب أو تهوِّم فتغيِّر اتجاهها، لأكثر من مرة كادت تثب في الهواء لتلتقط واحدة أو أكثر، هدأتها وداعبت رأسها ورقبتها حتى تركتهم وسكنت قليلًا، تغمض عينيْها مع حركة أصابعي، تمشط رقبتها ورأسها حتى عاد إليها الانسجام وعادت تقرقر في هدوء.

سألت موظفة الاستقبال إن كان يمكنني أن أصطحب صديقة إلى غرفتي، أجابت بنفي مهذب وأشارت إلى لافتة معلّقة خلفها على الحائط، قالت توضح إن سياسات الفندق لا تسمح بالمصاحبة، ثم أضافت بعد لحظة صمت أن هناك فندقًا آخر في الجوار يسمح بذلك، كانت القطة بين يدَيَّ، رفعتها قليلًا كأني أُعرّفها إليها، في لحظة واحدة اتسعت عيناها وأشرق وجهها بالبهجة ثم مدت يديْها فتناولتها، أخذت تلاطفها وتحرِّك لها يديْها وتدغدغها هنا وهناك حتى استجابت لها وانتعشت وظهر عليها الابتهاج، بدا أن الفتاة تمتلك خبرات قططية أوسع بكثير مما قدَّرت.

قالت: بالطبع يمكنك، إذا كانت هذه هي الصديقة فسنحتاج فقط إلى تزويدك بفراش صغير مناسب، قلت: إنني سأتصرف، قالت كلمة بلغتها وسط ضحكها فلم ألتقطها لكن بدا أنها تعني شيئًا كـ«لا بأس»، سألتها: هل تحبين القطط؟ أومأت برأسها بلطف، وأنا تشجَّعت وقرَّرت أن أجرِّب معها اتفاقًا صغيرًا.

ـ هل يمكن أن تعتني بها إذا خرجتُ لشئوني اليومية؟

ـ بالطبع، يمكنك دائمًا أن تتركها معي.

ـ لطيفٌ جدًّا.. أرجو ألا نكون ضيوفًا مزعجين.

ـ إطلاقًا.. بكل سرور.

ثم لمحت زبائن آخرين يقصدونها فقرّرت ألا أستهلك من وقتها أكثر مما يجب، استقرَّت على صدرها لافتة صغيرة مكتوب عليها «سكارليت»، التقطت الاسم وشكرتها باسمها فأعطتني ابتسامة لطيفة أخذتها بسرور ومضيت مع صديقتي الصغيرة إلى غرفتي، كنت دائمًا أحب أن أكسر جليد الغربة بمثل هذه التصرفات التافهة وكثيرًا ما أثمرت نتائج معقولة.

الغرفة فرشها بسيط، تتراوح ألوانها بين البنيّ والبنفسجي الفاتح وعلى الأرض سجاد سميك يغطي خشبًا عتيقًا يئن في بعض أنحائه، ليس ذلك الأنين المقبض للأماكن القديمة فالمكان كله مُجدد ومعتنًى به. في مواجهة الباب نافذة كلما فتحتها صدر عنها شيء من زفير خافت، كأنها تتنفس، على اليمين دولاب صغير ومقعدان مريحان، وعلى اليسار فراش يتسع لفرد واحد، ربما لفردَيْن على أن يلتصقا بشيء من حميمية، ملحق بالغرفة حمّام بابه يجاور الفراش، تهبّ منه رائحة رطبة يحفُّها عطر لطيف، يستخدمون صنفًا من الصابون عطره من خلاصة زهور محلية، وتيار الهواء القادم عبر النافذة يسوق العطر فيطوف بأنحاء الغرفة، يملؤها ارتياحًا ورخاوة.

على الحائط أكملتُ رسم النافذة وجعلتها تمتدّ لتصل إلى الأرض، صارت كدرفتيْ باب لشرفة وتمنيت أن أصحو ذات يوم لأجده ينفتح فعلًا على شرفة، ثم رسمت لها مقبضًا حديديًّا من طرازٍ قديم مُزخرف وحلقات معدنية صغيرة على الجانبيْن، ثم صار الشقّ بين الدرفتيْن يسرِّب خيطًا رفيعًا من ضوء الشمس، يتحرَّك بمرور الوقت مع حركتها بالخارج، ولأيام متتالية تابعت حركته ووضعت على الأرض علامات للوقت فصار كأنه ساعة شمسية.

عرَّفت القطة على الغرفة لكي تألفها ثم تركتها على الأرض تستكشف هنا وهناك، صنعتُ قهوة ثم فتحت النافذة وجلست كما يجلس مانيكان يؤدي وظيفته بإخلاص في فاترينة محل أزياء، أتأمل المطر والسماء وحركة السحب، فجأة قفزت فوقي فاهتزَّت يدي من أثر الصدمة وسقط بعض من القهوة عليَّ وبعضها في الطبق الصغير، اعتدلتُ ووضعته على الأرض بجانبي فاقتربتْ منه وأخذتْ تشمُّه، تركتها وذهبت أغيِّر ملابسي وعُدت لأجدها تلعق القهوة من الطبق بنهَم واستمتاع.

ـ ثمة أشياء مشتركة بيننا يا قطة.

بدا أن القهوة منحتها قدرًا من الاتزان فجلست تمارس التأمل بجانبي، بقيت دافئة وهادئة لبرهة ثم بدأت تموء، ترفع رأسها وتتلفت ثم تعيده إلى مكمنه، تهدأ قليلًا ثم تموء من جديد.

ـ جائعة يا قطة؟

نَظرت إليَّ ومنعها الخجل من الإجابة ثم ضمَّت يديْها وخفضت رأسها بينهما وجلست تترقب، لم أعرف ماذا أقدِّم لها ولا كيف

أقدِّمه، أوضحت لها أن خبراتي مع القطط محدودة إلى أبعد مدى، وأنني حتى نسيت أن أشتري لها شيئًا تأكله.

ـ سيكون عليكِ أن تجرِّبي المعاناة جرَّاء مصاحبتكِ لي!

بدا عليها قدر من الانزعاج فأوضحت لها أنني لست جادًّا تمامًا في هذا، قلت لها إن لي طريقة في الهزل سوف تعتاد عليها، وأخبرتها بحكمة أن لكل شيء ـ حتى الصداقة ـ ضريبة ينبغي دفعها، وهي بدا عليها قدر من التفهم ولم تعلّق بشيء.

تأملتها وهي تقرقر بانسجام وتحرّك رأسها لتكثّف إحساسها بفرك أصابعي لفروها البنيّ الكثيف، نظرت إليها وأنا أفكر، هذا الفراء البني المخلوط بالأبيض يشبه ألوان القهوة وهي أيضًا تشرب القهوة، أي اسم يمكن أن تحمله إلا أن يكون شيئًا كـ.. قهوة.. إسبريسو.. موكا.. كافيين.. كابوتشينو.. لاتيه.. مممم.. موكا جيد.

لامستُ أنفها الوردي الجميل بسبّابتي وكرَّرت الكلمة لتحفظها: موكا أنتِ.. أنتِ موكا.. موكا.. موكا، ثم أشرت إلى صدري وقلت: مالِك.. أنا مالِك، وهي نظرت إليَّ كأنها تفهم ما أريد وردّت بمواء من كلمتين، لا بدَّ أنه يعني استيعابها لما أقول، عيناها الواسعتان كانتا بلون سماء توشك أن تمطر، درجة جميلة بين الأزرق وبين الرمادي، لم يكن لديَّ تاريخ جيد مع القطط منذ طفولتي، ولكن قلبي كان مُرحبًا وكلما التفتُّ جهتها أو فرغت من شيء وجدت نفسي أقول: أهلًا موكا، في المرة الرابعة أو الخامسة نظرت إليَّ وأصدرت مواءً صغيرًا كأنها تقول: كفى! فهِمت.

يا الله هل مللتِ مني بهذه السرعة؟

رفعتُ السماعة وشرحت الوضع لموظفة الاستقبال اللطيفة التي تذكرت اسمها بسهولة؛ سكارليت، ثم عُدت ومعي موكا إلى جلسة التأمل في الفاترينة، فتحت النافذة قليلًا فدخل هواء منعش، مرَّ وقت ثم تركتني ونزلت إلى الأرض، تمشت بهدوء باتجاه الباب، شبَّتْ على قدميْها الخلفيتيْن تريد أن تصل إلى مقبضه، خربشت قليلًا قبل أن يأتي طَرْق خفيف، التفتت إليَّ وأخذت تموء فقمتُ وفتحت الباب ووجدت شابَّة لا أعرفها تبتسم وتقول شيئًا مبهمًا بدا أنه تحية، استقرَّ على وجهها قَدْر من الدهشة ورجعت خطوة إلى الوراء تتأكد من رقم الغرفة، أدركت أن تغيير ملابسي ربما أربكها فأشرت إلى نفسي وأنا أقول: نعم.. أنا أنا.

كانت هي أيضًا قد غيَّرت ملابسها فتغيَّر شكلها ولم أتعرَّف إليها من أول نظرة، الآن تبدَّت بكامل بهاءها كامرأة صغيرة يفوح منها قدر لافت من الأنوثة، أقصر قليلًا مما كانت وراء مكتب الاستقبال وأشهى كثيرًا، زِيّ الفندق الذي كانت ترتديه بالأسفل كان يضعها في قالب مختلف كليًّا، ربما أسبغ عليها بعض شَبه من زميلها الذي كان يجاورها ويرتدي الزي نفسه.

اقتحمت موكا المشهد، وضعت نفسها في المنتصف بيننا وشبَّت على قدميْها الخلفيتيْن فمالت إليها سكارليت وتلقفتها بين ذراعيْها، رحبتُ بها ودعوتُها للدخول فدخلت بهدوء، تعلّق على ظهرها حقيبة صغيرة بحمالتيْن سميكتيْن يمرَّان بجانبيْ صدرها فيحصرانه وينحتان منه كتلة كثيفة ذات حضور مميَّز، جلستْ

ثم تناولت حقيبتها وأخرجت منها طبقًا بلاستيكيًّا وعلبة مستديرة، أفرغتها كلها في الطبق ووضعته أمام موكا التي بدأت تأكل بنهم، بعد قليل جاءت واحدة من عاملات الغُرف بفراش صغير، سلّة من الخوص مجهزة بمفرش عليه رسوم لقطط صغيرة ملونة، شكرتها وشكرت سكارليت التي أعجبها اسم موكا كثيرًا.

تكلمنا عن القطط وعن نوادرها وعن مراعاتها، وأرتني فيديوهات تحتفظ بها على تليفونها عن قطط تقوم بأشياء لطيفة وأخرى تقوم بأشياء عجيبة، وأعطتني عدة روابط إنترنت عن القطط وعن الصداقة بين البشر وبين الحيوانات وعنوان صفحتها على الشبكة، ولم أجد ما أعطيه لها سوى عنوان صفحتي البائسة ثم تشعَّب الحديث إلى أشياء أخرى.

استلزم الأمر بعض الوقت لأكتشف أنها جميلة حقًّا، بيضاء كالشمع ولها شفتان كثيفتان، مضمومتان إلى الأمام قليلًا كأنما يتلبسهما شغف لقُبلات متتالية، شعرها الآسيوي ينساب كله كأنه قطعة واحدة من الحرير الأسود اللامع، تتكلم الإنجليزية ببطء وهدوء ولها لُكنة محلية مميَّزة تجعل بعض الكلمات صعبة الفهم وتُضفي على بعضها الآخر نكهة حلوة، عندما عرفت أنني نسيت أن أحضر معي طعام لموكا كَلَّمَتْ عاملة الغُرف باللغة المحلية وطلبت منها شيئًا لم أفهمه، ذهبتْ وعادت بعد قليل بعدة علب من طعام القطط لأحتفظ بها لموكا، بدا أنها سوف تكفيها حتى شيخوختها.

نصحتني بإعداد المكان ضد أي عبث محتمل لموكا، أعدّت ترتيب المحتويات القليلة في الغرفة حتى لا يُتاح لها أن تُريق

أو تفسد شيئًا، فجأة قالت إن الوقت تأخَّر وعليها أن ترحل، شكرتها وعُدت إلى موكا حتى جاء وقت النوم، ذهبت إلى فراشي ولكن صوتًا مزعجًا أتى من الشارع، صرير فرامل سيارة مسرعة وصوت صِدام، ثم ضجيج وصياح، ثم هدأت أصوات الشارع ثم ما بدا أنه صوت تدافع في الممرِّ خارج غرفتي، انتبهتْ موكا وتحفزت، نصبتْ أذنيْها في الهواء تلتقط ما يحدث بينما تمكنتُ من تجاهل كل شيء بنجاح ونِمت.

أقطع الممرَّ الذي فيه غرفتي في دقيقة ماشيًا على مهل إلى الدَّرَج الذي في نهايته، تنغرس قدمايَ في السجادة السميكة فيصعد منها شعور بالدفء والألفة ويغمرني.

في كل ممرٍّ ست غرف ويشغل الغرفة التالية لي سبعينيٌّ أنيق، عيناه رائقتان بلون اللوز وشعره فضيٌّ، قامته منتصبة ربما كرياضي سابق، تطوِّق رقبته على الدوام كوفية ألوانها من درجات الأحمر كامل التشبُّع، وكلما تصادف أن تواجهنا في الممرِّ أومأ كلٌّ منا إلى الآخر بما يشبه تحية صامتة ثم ننصرف كلٌّ إلى شأنه، وفي كل مرة تُلح عليَّ خاطرة كأن بيننا موعدًا مؤجلًا لم يحلّ أوانه بعدُ، تصادف أن رأيته لعدة مرَّات مع أصدقاء له يتمشوْن في الحديقة أو يشربون قهوة أو شيئًا في بهو الفندق، وأصدقاؤه كثيرون ولا يشبه واحد منهم الآخر، منهم مَن يرتدي زيًّا تقليديًّا مزخرفًا وملونًا، ومنهم مَن يرتدي زيًّا اشتُهِرَت به مهنة معينة أو اشتُهِرَ في زمان معين، وجوههم أيضًا حملت صفات وملامح أحيانًا كنت أتأملها فلا أجد أيًّا منها يشبه

ملامحَ عند آخر، ربما يرتسم على وجه أحدهم هدوء أرستقراطي، ربما يحمل وجه آخر ملامح رجل عصابات أو محترف عنف، على وجه ثالث ربما يمكنك أن تقرأ تاريخًا من الأسى أو البراءة أو أشياء أخرى كثيرة يصعب حصرها، يجلس معهم طويلًا ويتحدثون وقد يرتفع صوت أحدهم أو تبقى واحدة تتحدث بلهجة ناعمة، كثيرًا ما تنهمر الدموع من عيون بعضهم أو حتى يدخل بعضهم الآخر في نوبات من ضحك متواصل أو تنهمر سخرية لاذعة من عباراتهم، منهم شخصيات سوقية وشخصيات من النخبة، ومنهم شخصيات لا وصفَ محددًا يصلح لها، هل يُعدون أنفسهم لتصوير مشهد من فيلم تاريخي أو مسلسل اجتماعي؟

رأيته مرَّة في حديقة المدينة الكبيرة وهو يطعم الطيور هناك وهي تُقبل عليه وتقف مطمئنة فوق كتفه أو حتى على رأسه، فكرت حينها أن الوقت مناسب لحسم مسألة الموعد المؤجل ثم تراجعت، لم أحب أن أبدو كمَن يفرض نفسه على الآخرين، رغم هذا بقيت ترتسم على وجه الرجل ابتسامة ود لا تنقطع، لا أعرف.. ربما يتعيَّن على الواحد أن يقاوم اجتياح الوحدة الذي يتزايد لكني عُدت إلى جدول همومي المعتاد ولم أقرر أي شيء.

ينتقل الناس في أوقات ثابتة من طوابق الفندق الخمسة إلى المطعم الذي في طابقه الأخير، تطلّ شرفاته المفتوحة على مساحة من المدينة وتنساب فيه موسيقى خافتة على الدوام كما تنساب في كل أنحاء الفندق حتى في المصعد، وكنت كلما دخلته طربت عينايَ لحديده الملفوف بأشكال مزخرفة وجميلة، وفي هبوطي أستخدم الدرج لأتأمل اللوحات المعلقة على حوائطه.

في الطابق الأرضي بهو متسع وجدرانه مبطنة بقماش مطرز بزخارف ذهبية فوق أرضية من الأحمر الداكن، اختزلت السنون شيئًا من نضارته وتركت أبهته لم تمسها، بدا عليه أيضًا أثر الاعتناء المستمرّ والنظافة، ولولا هذا الاعتناء وهذه الحياة التي لا تتوقف في أرجاء المكان فربما تهدَّل وحلَّ خريف عمره، كان مدخل البهو يطلّ على الشارع مباشرة.

في الصباح وضعتُ إفطارًا لموكا في طبقها، تذكرتُ وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة ذلك الضجيج الذي حدث في مساء الأمس قبل النوم وتصورت أنني كنت أحلم، تذكرت أيضًا أنني نسيت أن أسجل عصارة يوم أمس الذي جرت فيه أحداث مهمة، أخرجت ورقًا وقلمًا وتركتهما فوق المنضدة الصغيرة لأعود إليهم بعد الإفطار وغادرت إلى المطعم، جلست أتناول إفطاري بينما أتصفح وجوه النزلاء الدائمين التي بدأتُ آلفها، وبالطبع كانت هناك وجوه أخرى لمستجدين أو عابرين لكن وجه جاري السبعيني لم يكن من بينهم جميعًا، فكرت أنه ربما انتهت إقامته ومضى، سمعت أطرافًا من حديث يدور حول حادث وجبيرة وإسعاف.

انتهيت وعدتُ إلى غرفتي، في الممرِّ لمحت باب جاري السبعيني مواربًا ويأتي منه صوت يتكلم بوهن واضح، أكملت طريقي إليه وطرقت الباب ثم دخلت بحذر، رحَّب الرجل بي وحرَّك يديْه في الهواء كأنه يقول: «أرأيت؟!»، تكلم مباشرة بودٍّ وبلا كلفة كما لو أنه يواصل حديثًا يوميًّا معتادًا بيننا، كان جالسًا على المقعد المجاور لفراشه وإحدى قدميْه ملفوفة في جبيرة زرقاء ضخمة حتى منتصف الساق.

إلى جواره تقف موظفة الاستقبال، سكارليت.. لم أنسَ اسمها، ومعها مُمرضة بدا أنها تنتهي من شأن حقنة كانت تعطيها له وتجمع أشياءها لتنصرف، قالت إنها سوف تكلمه غدًا في التوقيت نفسه قبل أن تأتي، خاطَبَته باسم «ماو»، نظرتْ إليَّ ثم حيّتنا بلُطف وخرجت.

شكرها بشدة، لكن ما إن خرجتْ حتى تحسَّس موضع الحقنة وتقلّص وجهه من الألم وهو يقول: يا لَلبؤس!

شعرت بوجع لأجله.

ـ سيدي سلامتك، أنت بخير؟

ـ ليس تمامًا، اضطررتُ لخوض حادث بسيط.

ـ أوه! سمعت فعلًا في المطعم حديثًا حول ذلك، لم أتصور أنك كنت فيه!

ـ ولا أنا أيضًا تصوَّرت.. سائق بائس للغاية!

ـ لا بد أن خطأً ما قد حدث.. أمنياتي بشفاء عاجل.. أرى أنهم اهتموا بأمر الإسعافات جيدًا..

ـ نعم لا بأس.. تكلف كثيرًا.. بلد جميل.. لكن الرعاية الصحية مكلفة للغاية.

احمرَّ وجه موظفة الاستقبال وقالت بلهجة نصف رسمية يشوبها بعض لُطف وبعض حرج:

ـ سيدي أكرِّر اعتذاري نيابة عن الفندق، برنامج تأمين السفر يغطي هذا، ونحن لن نتوقف عن المساعدة.

ردَّ ماو:

ـ لا عليكِ يا سكارليت، حظ جيد أن السائق والعربة تابعان للفندق، ربما لولا هذا لكان قد هرب، وكنتُ قد وجدتُ نفسي في وضع أسوأ.

قلت وأنا أحاول أن أضيف بعض لُطف إلى الجو العام:

ـ حسنًا، لا بدَّ أننا أحسنَّا اختيار الفندق، سيكون علينا أن نضع هذا في تقييمنا له على booking.com.

ـ سأكتب: لا تخشَ من السيارات.. فهم يتكفلون بالرعاية الصحية هناك!

ضحك بينما بدا مزيد الحرج على وجه سكارليت، وانكمشتْ قليلًا داخل مساحتها.

أضفت:

ـ كن مطمئنًّا واعبر الطريق مُغمض العينيْن.

ما زال خداها ملتهبيْن لكنها ضحكت بقدر من الصفاء..

ـ طبعًا.. على كل حال، أرجو أن ينتهي أمر الجبيرة في أسرع وقت!

أشار إلى ساقه..

ـ ستبقى معي لثلاثة أسابيع قادمة على الأقل، جبيرة بائسة للغاية!

امتلأ جو الغرفة بالأسى، فكرت في الوحدة والغربة والصحبة، ثم تذكرت موكا ووحدتها في غرفتي بلا صحبة، استأذنته وخرجت وعُدت ومعي موكا التي صُدمت عندما وقعت عيناها عليه، أنزلتها

على الأرض فخطت بهدوء وترقُّب ثم جلست على ساقيْها الخلفيتيْن ومطّت رقبتها وألقت برأسها إلى الوراء، بدت كما لو أنها ترى مخلوقًا غريبًا، رأس آدميّ فوق جسد متكوم تبرز منه ساق ضخمة لونها أزرق، لاحظ كلانا دهشتها وارتسمت على ماو ابتسامة عريضة ثم قطع الصمت والنظرات المتبادلة دخول مضيفة الغُرف ومعها دورق زجاجي ممتلئ بالقهوة، خرجت سكارليت من مساحة الظل التي كانت فيها وتقدمت وتناولته منها، بدأت تصبّ لماو ثم صبَّت لي وطلبت منها أن تصب قليلًا في طبق لموكا، نظرت إليَّ لتتأكد مما سمعت، وظهرت بعض تعرجات في جبهة ماو عندما رفع حاجبيْه وهو ينظر إليها، بينما واصلت موكا تأمل قدمه العجيبة، أكدت لها من جديد:

ـ نعم نعم.. قهوة.. هي تحبُّ القهوة.

ثم التفتت جهة ماو:

ـ سيدي.. هذه موكا صديقتي منذ أربع وعشرين ساعة، حب من أول نظرة، موكا.. هذا السيد ماو، كوني لطيفة فهو مرهق قليلًا.

حيَّاها وهي اقتربت منه قليلًا تنقل عينيْها بين وجهه وبين ساقه الزرقاء.

ـ آه.. لطيف جدًّا، يا للمزاج! صديقتي كان لديها قط يأكل الآيس كِريم وقط آخر يأكل المانجو..

رشف بعضًا من قهوته ثم أغمض عينيْه بشدة، وألقى برأسه إلى الخلف يتألم في صمت.

قالت سكارليت:

ـ سيد ماو.. هنا المُسكِّن والمراهم التي كتبها الطبيب، وهذا باسط للعضلات رائع أرجو ألا تنساه، على كل حال سأعود ثانية، هل أفعل لك أي شيء الآن؟

شكرها بالإنجليزية وباللغة المحلية، لا بدَّ أن لكنته هي التي جعلتها تبتسم وتتخلى عن بعض الحرج الذي تلبَّسها.

أضاف:

ـ الأمر فقط صعب قليلًا كما هي البدايات دائمًا.

حيَّتنا واستأذنت ثم تحرَّكت بهدوء إلى خارج الغرفة.

قال:

ـ رأيتك ترسم على المناديل الورقية قبل أيام في المطعم، وفي بهو الفندق..

ـ نعم سيد ماو، أحب الرسم كثيرًا.

ـ قل لي ماو فقط.. هل هذا عمل، أم هواية لأوقات الفراغ؟

ـ الرسم حُبي الأول منذ طفولتي واخترته كمهنة.. في الواقع لم أختره بالمعنى الدقيق، أنا وجدت نفسي أرسم منذ طفولتي وواصلت الرسم ولم أتوقف حتى صار مهنة.

ـ آه، أفهم هذا.. يستغرق الواحد في الأمر ثم لا ينتبه إلا بعدما يجد نفسه غارقًا فيه.

صمت.

استمرَّت موكا تلعق قهوتها من الطبق بهدوء.

ـ أنا كاتب، أؤلف القصص والمسرحيات منذ زمن لم أعُد أذكره، وكبرت وأنا أكتب ونسيت أن أفعل شيئًا آخر غير ذلك، ثم صارت مهنة.

ـ آه، هذا جميل، تشرفت بك، أنا مالك.. رسّام كما تعلم.

ـ أهلًا بك.. رغم ذلك فأنا في فترة توقف إجباري لا أعلم متى تنتهي.

ـ أرجو أن تفكَّ الجبيرة وأن ينتهي التوقف سريعًا.

ـ لا، ليس هذا ما أعنيه، ابحثْ عن موضوعات وأفكار.

واصلتُ دغدغة رقبة موكا وبدا ماو غير متحمِّس للتحدث، ثم واصلنا ارتشاف القهوة بينما كنت أحاول أن أبدي تفهمًا لما يقول..

ـ آه، نعم بالطبع يحدث هذا دائمًا، سيد ماو ربما تحتاج إلى بعض التغيير.. أماكن أو مشاهد..

ـ بالضبط، هذا هو ما أحاول أن أفعله هنا، الآن حتى هذا لم يعُد ممكنًا.

صمت.

سأفتقد أيضًا مسألة تغيير المشاهد هذه، ربما لن يقتلني إلا هذا.. سأفتقد أيضًا عصافيري والطبيعة الجميلة في هذه المدينة.

ـ سيدي، سأدبر لك حلًّا..

عاد الصمت من جديد، نظرت إلى جفنيْه الآخذيْن في التراخي ببطء، أوشك أن يأخذه نوم خفيف، حاولت أن أقوم بهدوء فانتبه من جديد..

ـ اعذرني لم أنمْ بالأمس جيدًا.

ـ لا عليك.. سأتركك لترتاح.

حرَّكتُ الفوتيه الصغير بالقرب منه وساعدته في إراحة قدمَيه فوقه، غلبه الاسترخاء والإرهاق وتراخى جفناه، ترك على المنضدة الصغيرة مجموعات متجاورة من الورق بعضها حمل كتابة وعليها تصحيحات وشطب وإضافة بألوان مختلفة، وعلى أوراق أخرى ما يشبه خرائط ذهنية تتحرك عبرها شخوص، دوائر ومربعات وخطوط، ورقة أخرى عليها خط زمني وملحوظات كثيرة، بدا أنه غارق في كتابة حافلة بأحداث مثيرة.

تناولت ورقة فارغة وقلمًا وأخـذت أرسم له عصافير من صنف عصافير الحديقة نفسها التي قال إنه سيفتقدها، رسمت أيضًا شجرًا كثيفًا يظلّلهم ومن ثغراته تنفذ إليهم شعاعات شمس لطيفة، ثم وجدت كيسًا شفافًا ممتلئًا إلى نصفه تقريبًا بالحبوب الخاصة بالطيور، أفرغت بعضه أمام العصافير وبدأت العصافير تغرد وتمرح، صارت لديه حديقة صغيرة توشك أن تنبض بالحياة، تمنيت أن يجد فيها بعض السلوى أو تعويضًا عن حديقة المدينة التي لن يكون قادرًا على الوصول إليها حتى يُشفى.

التفتُّ إليه فوجدته قد راح في نوم عميق، نثرت في الهواء بعض أمنيات بأحلام تكون أفضل قليلًا من هذا الواقع، ثم غادرت المكان إلى تمشيتي اليومية في الحديقة.

مررت بسكارليت لأسألها عن متجر قريب يبيع أجهزة طبية، فِكرتي كانت أن أحضر له كرسيًّا متحرِّكًا يمكن أن يساعده على الخروج وتنسّم الهواء الطلق بدلًا من سجن الجبيرة التي لديه، بدت الفكرة مؤثرة من وجهة نظرها وعبّرت عن سعادتها لأن غريبًا يفكر في غريب آخر بهذه الطريقة، أكملت كلامها بنبرة فيها بعض اللوم لنفسها كونها لم تفكر فيها، ثم التفتت إلى زميلها بجانبها وتكلمت معه بلغتهم المحلية، تجادلا قليلًا ثم فتح أحد الأدراج وتناول منه مغلفًا أخرج منه أوراقًا وظل يقرأ فيها إلى أن وصل إلى سطر معين وضع تحته خطًّا وأشار إليها. تناولت هي الورقة ثم رفعت رأسها إليَّ وعلى وجهها علامات اهتمام:

ـ أظن أن تأمين السفر التابع له السيد ماو يغطي هذا..

صمتت لبرهة وهي تُكمل قراءة السطور التي أمامها ثم أكملت:

ـ طول مدة بقائه هنا على الأقل.

كان هذا رائعًا حقًّا..

ـ سوف أخاطبهم وأطالبهم بتنفيذ هذا البند، لكن لا بدَّ أن يتم هذا عبر إدارة الفندق أولًا.

استبعدتُ نظرية أن هذه العبارة الأخيرة قد تكون مهربًا روتينيًّا تماطل به هي أو إدارة الفندق، رغم ذلك قررت أن أتابع الأمر،

ناقشتها في الإجراء المتبع والوقت اللازم وغير ذلك من تفصيلات، ويبدو أن اهتمامي دفعها للذهاب بنفسها إلى الإدارة، أخبرتها أنني سأنتظر في بهو الفندق لأرى ما سوف يحدث، أجّلت خروجي وطلبت قهوة أخرى وجلست أتصفح الصحف التي وجدتها هناك، قرأت كثيرًا من أخبار العالم البائس وحروبه قبل أن تأتي هي تحمل أوراقها في يدها ووجهها مشرق، قالت إنهم حصلوا على موافقة شركة التأمين، وإنها تلقّت تفويضًا من إدارتها بمتابعة الموضوع.

عندما عُدتُ في المساء وجدتُ باب غرفته مفتوحًا، قفزتْ موكا وسبقتني وأزاحت الباب بكتفها الصغيرة ودخلت، كان ماو جالسًا على مقعد معدني مزود بمحرك كهربائي وعصا تحكُّم، يقرأ في كتيب صغير عرفت أنه يشرح طريقة استخدام الكرسي والتحرك به، أمامه منضدته الصغيرة وفوقها مجموعاته من الأوراق مُرتبة بطريقته كما هي، كان هناك أيضًا بقايا عشاء خفيف، سكارليت بجواره تعيد شريط الدواء إلى مغلفه وتضعه بجوار أنبوب كريم ملون، رتبتِ الكومود بمزيد من الهدوء ثم التفتتْ إليَّ ورحبتْ، وأنا حيّيتها، في وسط الغرفة بضعة عصافير ترفرف بينما تحلَّق عدد آخر حول إناء الماء وطبَق الحبوب اللذيْن تركتهما، كان ماو يقرأ في أوراقه فلم ينتبه إلا عندما صرتُ بداخل الغرفة، بدا عليه بعض السرور مع بقية من تألُّم، توجهت موكا إليه بحذر، أشار بامتنان إلى العصافير وإلى الرسم، ثم أرسل في الهواء تحية شكر صغيرة بإصبعَيْن مضمومتيْن وفتحت كفَّي يدَيَّ كأني أتلقى كرة قذفها فضحك وابتسمت سكارليت، هنأته على الكرسي المتحرك ومضى الوقت ألطف كثيرًا من ذي قبل.

في اليوم التالي ذهبتُ إليه مبكرًا ووجدته يجلس منهمكًا في الكتابة، بدا في حال أفضل مما تركته بالأمس، تنساب شمس دافئة وجميلة من نافذته، تبادلنا حديثًا قصيرًا ودعاني لتناول القهوة معه، أحضرتُ موكا وعدتُ إليه وجلسنا، استمرَّ هو يضع خطوطًا تحت كلمات وسطور معينة في أوراقه ويكتب ملحوظات هنا وهناك وأنا لا أعرف ماذا أفعل، لا بد أنه خشيَ أن ينتابني الملل فناولني ورقًا وقلمًا كأنه يدعوني للعمل، شكرته وشعرت بالحرج وأنا أتأمل المساحة البيضاء التي بدت شاسعة الاتساع، كأنها صحراء قاحلة تنتظر أن تمتدَّ إليها خطوط الحياة لتورق وتزدهر، اختارت موكا أدفأ مكان تحت أشعة الشمس وتكورت على نفسها وأغمضت عينيها بينما أنا لم أقرر بعدُ أي شيء، بعد قليل طُرِق الباب ودخلت سكارليت في فستان مبهج أصفر وقصير وله حمّالتان عريضتان لا تُخفيان شيئًا كثيرًا من بشرتها، تناثرت فوق الفستان وردات كبيرة بيضاء وأغصان رفيعة لها ورق أخضر، في مُجملها كانت تشبه شروقًا صغيرًا.

رحّبنا بها وهي سألت عن حال ماو ثم اتجهت إلى الكومود الذي تركت عليه أدويته بالأمس، تأكدَتْ أنه تناول جرعاته المحددة وكلمته بلطف ابنة ترعى أباها المسن، فهمنا من حديثها أن اليوم لم يكن يوم عمل لها لكنها جاءت فقط من أجل متابعة ماو الذي تغيَّرت تعبيرات وجهه تدريجيًّا من جدية وبقايا ألم إلى انسجام وبعض انشراح، تخلّت عن الحرج الذي كان لديها وجلست كصديقة قديمة وهو أبدى براعة كبيرة في إعادة حكي الحادثة التي جرَت له بطرق مختلفة كلها ساخرة ومضحكة، ثم اندمج في الحكي وأخذ

ينتقي من مخزون ذكرياته حوادث طريفة كثيرة مرَّت به وعلا صوتنا بالضحك وتحسَّن الجو العام بالمكان كثيرًا.

عندما قامت سكارليت تُعيد ملء أكوابنا بالقهوة اكتشفنا غياب موكا، كان باب الغرف مواربًا، تركته سكارليت عندما دخلت ويبدو أن موكا انتهزت الفرصة وخرجت لشأن ما، اندفعتُ إلى الخارج أبحث عنها، مشيتُ إلى نهاية الممرِّ الذي كان خاليًا ولا يوجد لها أثر، عدتُ إلى غرفتي ومعي سكارليت، لم يكن محتملًا أن تفتح موكا باب الغرفة بنفسها وتدخل ورغم ذلك بحثنا عنها تحت الفراش وفي كل مكان بلا جدوى، توقفت سكارليت عند شريط الضوء المتسرِّب من الباب المرسوم على الحائط وتأملته للحظات حتى أدركت مغزاه، قطع تأملاتها صوت موكا من عند باب الغرفة، جرت إليها وقفزت في حضنها، وهي أخذت تداعبها وتفرك رقبتها ورأسها وتسألها أين كانت وماذا فعلت، وأنا أحسست للحظة بغصة أني متروك أو مُهَمَّش.

أفرغتْ لها واحدة من علب طعامها وتركتها لتأكل، ثنت ركبتيْها وجلست بجوارها على الأرض تفرك رأسها ورقبتها وتداعبها، كان لا بدَّ أن يبدأ حديث ما وكانت نقطة البدء هي موكا، سوف يأتي امتداد لهذا الحديث القصير فيما بعد وسوف يشمل موضوعات كثيرة ومتشعبة بحيث يمكنها أن تغطي ـ تقريبًا ـ وجه الكوكب، بداية من مدينتها الصغيرة في ذلك الإقليم الشمالي البعيد من البلاد، الظروف التي أدت إلى انتقالها إلى هنا، سوف تمرّ عبرها بشكل سريع لتتجاوز تعبيرات ألم لا تريدها أن تطفو على وجهها، سوف تحاول أن تتجاوز أحزانها القديمة ثم لا بدَّ سوف تأتي فرصة

أخرى تعود لتحكي لي فيها جوانب أخرى من هذه القصة، وإذا حدث هذا فلا بدَّ أنها سوف تنتقل إلى الحديث عن دراستها وعن حياتها وموضوعات أخرى.

تذكّرَتْ فجأة أن لديها موعدًا مع بعض أصدقائها لنزهة وغداء خارجي، لم يكن لديَّ شيء أفعله فوافقت على دعوتها، تركنا موكا عند ماو ونزلنا وسط مطر خفيف ورائع.

في المطعم عرّفتني إلى أصدقائها، أكلنا وشربنا وحدث تآلف سريع بيننا ثم انتقلنا إلى مقهى أنيق يجاور المطعم، من بين أصدقائها واحدة تدرس الرسوم المتحركة وآخر يعمل محاسبًا في شركة ما، وواحدة أخرى تعمل أشياء كثيرة؛ كل ما لا يعمله الآخرون: تدرس علم النفس، تبيع وتشتري وتنشر الفيديوهات على الإنترنت وتتكلم كثيرًا، ربما بقدر ما يتكلم مجموع الحاضرين كلهم، من الصعب إسكاتها إلا أن دورها في جلسة يلتقي فيها خمسة أفراد لأول مرة كان ضروريًّا، أضحكتِ الجميع وأثارت موضوعات كثيرة وحطمت بمهارة جليد البدايات، متميزة الصخب واسمها جولييت، لم تعُد مسألة أسماء الناس هناك تشغلني، بعضهم يقدم نفسه للعالم باسم غير الذي يعرفه به الناس في محيطه القريب، لاحظت هذا حتى قبل أن أصلَ إلى هناك ولم أفهمه تمامًا.

سكارليت كان يأتيها بعض خجل في منتصف حديثها فتتردد وتقطع استرسالها، تدفعها بعد قليل رغبة خافتة في التواصل إلى فتح موضوع جديد، قالت إنها تدرس التصوير الفوتوغرافي إلى جوار عملها وإنها تحبه منذ كانت صغيرة، ثم انتقل الحديث

إلى موضوعات أخرى كثيرة لا يربط بينها شيء، تطرح سؤالًا أو تحكي عن واحد من ذكريات طفولتها أو عن صديق أو صديقة، وبشكل ما أحسست أن لديها رغبة في أن يتصل الحديث ويمتدّ، معي ومع الآخرين.

عرفتُ أن عُمْر صداقتهم لم يكن كبيرًا، التقوا قبل أسبوعَين في دورة للمحادثة بالإنجليزية، كلهم كانوا في سن التعارف السريع والسهل وكنت قد تخطيت هذا، ربما بسنوات قليلة، عندما صمت الجميع للحظات أدركت كم أفتقد هذا المرح وأفتقد صحبة كهذه منذ أمد لم أحاول حتى أن أتذكره، طاقة كبيرة كانت تتفجر منهم جميعًا وأشياء كثيرة يريد كل واحد منهم أن يقوم بها، في كل العيون حماس وتألق لدرجة أنني شعرت بالدفء وأنا أتأملهم وأتابع أكفهم تضرب الهواء بقوة بينما يشرحون أفكارهم، أصواتهم وهي ترتفع ليعارضوا أو يؤيدوا رأيًا أو تصورًا قاله أحدهم.

في وقت من الأوقات كنت أنا أيضًا هكذا.

أما سكارليت، فرغم أنها من أول لحظة بدتْ مقبلة على العالم، ورغم أن تاريخ لقائنا لم يزد بعد على يومين فقد تكلمنا كثيرًا وبدت منفتحة وودودة بشكل لافت، أنظر إليها وهي تدافع عن فكرة تقولها، تتسع عيناها وتلمعان ويحمر وجهها فتبدو أجمل قليلًا مما كانت قبل دقائق، تتعلق عيناي بها ولا يزال في صدري سياج من حديد سميك تخرج منه فوهات بنادق تطلق النار على مَن يقترب، تتناثر أمامه الجثث وتفوح رائحة بارود تطبق على رئتَيّ حتى أكاد أختنق.

خشيتُ عليها أن تواجه ما قد لا تستحق، ربما لو التقينا في زمان آخر أو في ظروف أخرى لتغيرت أشياء كثيرة، زمان تكون فيه شهية الواحد للغرام مفتوحة، ويكون في القلب براح لغزالة تطارد شعاعًا ينفذ من شبابيك الروح ثم تجلس مطمئنة تلعق حبات المطر، الآن ليس في القلب إلا أخاديد متعرجة لم يزل يصدر عنها أزيز خافت كلما أصابها ارتواء، أو حتى كلما هبَّ نسيم رطب من حولها.

الأرض مرصوفة بحجر أسود زالت قساوته بفعل الزمن وحركة الكائنات من فوقه، تتفاوت أحجامه وتعشيقاته من شارع إلى آخر وتتخذ شكل أقواس تتوازى أو دوائر يقطع بعضها بعضًا في متوالية لا نهاية لها، كل الشوارع كذلك، وكلها مستقيمة وتتلاقى أو تفترق كأن إلَهًا قطعها من أعلى بسكين عملاقة إلا شارعًا واحدًا، وهو أكبرها وأوسعها، مضى منفردًا يطوي المسافات ويتلوى كالثعبان حتى أقعدته الشيخوخة فاستقرَّ وجلس يتأمل الزمن الذي يعبر من أمامه، وهو يصعد الهضبة التي تقبع فوقها المدينة الصغيرة ثم ينتهي إلى ميدان يُفضي إلى حديقة فوق هضبة أعلى، تظهر من بعيد كأنها قبة واسعة مستوية الاستدارة، أو كأنها غطاء رأس للمدينة لونه أخضر ورائق، أرضها مكسوة ببساط من نجيل بهيّ تتوزع فيها طرقات تقسِّمُها إلى قطاعات متماثلة، والطرقات مرصوفة ببلاط ملون، وفي المساء تُضاء كلها بمصابيح معلقة فوق أعمدة طويلة وعتيقة من طراز واحد، تحوط خصر كل منها قلادة عريضة

من زخارف فخمة وكثيفة، وللأعمدة رسوخ كأنها مسامير تثبت أبسطة النجيل والممرَّات في الأرض.

عند مدخل الحديقة، على الجهتَيْن، أعمدة أخرى قصيرة لا يتجاوز ارتفاعها خصر إنسان بالغ، وتعلوها كرات زجاجية فيها حلوى ملوّنة الواحدة منها بحجم ثمرة كرز أو ليمونة صغيرة، أخبرني رجل مُسن مارّ بالصدفة بجوارها أنها تجبر كسور القلب وتطبّب خدوش الروح، وإذا تناولتها عند الدخول فسيمر وقتك في الحديقة في أمان، وخشيتُ أن أجربها، توقعت أن مفعولها ينتهي عند وقت محدد، ساعات أو أيام بعدها تعود الكسور تؤلم كما كانت وتعود الخدوش كأنها لم تُمَس.

من الأعمدة نفسها تتفرع خيوط عديدة تصعد في السماء، ينتهي كل خيط إلى سحابة تشبه كرة هشّة من قطن أبيض تشوبه مسحة من لون خافت؛ أصفر أو وردي أو أخضر أو بنفسجي، تبدو كأنها قِطَع كبيرة من المارشمالو ولا تغادر أماكنها لكن يراودها الهواء فيهبها حركة خافتة، وفي كل يوم عند اقتراب المساء فإن واحدًا من القوم هناك يأتي ويُتمّم عليها، يُحصيها بنظرة سريعة ويفحص رباطها ثم يتركها ويذهب إلى شأنه.

وفي الجهة الأخرى من الشارع أمام مدخل الحديقة كشك لبائع ولديه كرات زجاجية كالتي في الحديقة وبها حلوى أخرى للأحلام، رأيتها كثيرًا وخشيت أيضًا أن أجربها، فكرت أن الأحلام التي تجلبها ربما تكون مسبقة التجهيز، تشبه أحلام الآخرين بلا تفرُّد ولا خصوصية.

لا تخلو الحديقة ممن يمنحها حركة وحياة في الليل أو في النهار، وبعض أركانها موسوم بأناس لا يُغيرون أماكنهم، وإذا اعتدت ـ مثلي ـ زيارتها فإنك تألفُ شكل الركن بمَن اعتاد أن يشغله، حتى إذا غاب أحدهم بدا المكان من دونه غريبًا، وتتشعّب طرقاتها وممراتها في نظام فريد، تضيق وتتسع وتلتوي وتمرّ عبر باحات مفتوحة ثم تنتهي إلى أخرى مغلقة، تخترق بعض الطرقات صخرات كبيرة تركت في أماكنها وجعلوا الطرقات تعبرها من داخلها عبر أنفاق أو نحتوا في جسدها سلالم من حولها تصعد وتهبط وأنشئوا لها سياجًا يحمي الصاعد والهابط من السقوط، تغطيها نباتات زاهية الاخضرار وتمسخ روحها الصلبة إلى حياة وألوان تجعلها تتسق في مُجملها مع المشهد العام.

كعالَم آخر صغير بمكوناته الفريدة كانت الحديقة معزولة عن الحياة اليومية للمدينة بصخبها وزحامها، موقعها وطبيعة أرضها أيضًا أعطياها مزيدًا من الخصوصية وأسَرَتْ بكل ما تحتويه جزءًا كبيرًا من قلبي، وكثيرًا ما كنت أبقى فيها حتى تغرب الشمس، أتأمل وأنصت إلى صوت الطبيعة أو إلى شيء من الموسيقى، أترك صدري مفتوحًا يتغير عليه الهواء المنعش وأجتهد حتى أتخلص من أي شيء يعيدني إلى الوراء.

تنتهي إحدى الطرقات إلى ساحة دائرية تشبه ميدانًا صغيرًا، يشغل جانبًا منها رسام يصُفُّ حوله لوحاته الصغيرة في صفوف متتالية وأكثرها وجوه لأناس تتنوع أعمارهم وأجناسهم فتبدو من بعيد كأن جمهورًا يحضر حفلًا في مسرح روماني كبير، ولكل وجه منها وسامة وجاذبية، وفي ركن من الساحة مجموعة مميزة

من اللوحات كلها لعازفة واحدة جميلة تعزف على آلة فيولين(*)، وإذا نظرت إليها والتقت عيناك بعينَيها فإنها تبدأ في العزف، شيئًا فشيئًا تندمج وتنساب مع انسياب موسيقاها وتشعر وأنت أمامها أن المكان بأكمله يتماهى معها ومع اللحن المعزوف، ورغم أن الوجه واحد إلا أن لكل لوحة طبيعتها وعالمها، وبالطبع موسيقاها التي تنبعث منها، يصنع الرجل شيئًا ممتعًا حقًّا ويستخدم تقنيات لم يسبق لي أن رأيتها من قبل.

عندما مررتُ بالقرب منه قرأت توقيعه «هوجو» فوق اللوحات، ومنذ أتيت إلى المدينة وعرفت الحديقة وما فيها صار المرور بالمكان وتصفُّح وجوهه التي لا تنتهي طقسًا من الطقوس التي لم أعد أملك التخلي عنها، وكلما مرَّت بضعة أيام وعدت لتأملها كنت أجد وجوهًا جديدة انضمَّت إلى حفله الكبير وأخرى غادرتها، لا أعلم إلى أين لكن الأمر بدا كما لو أن الرجل ينشئ خلقًا كثيرين، قبيلة تتبعه هو وحده، يتحلقون حوله ولكل منهم حياته التي لا تشبه غيرها، تستمرّ أو تنتهي أو تتغيَّر، وهو يُديرهم ويدبر أقدارهم، ويجعل للرسم عمقًا وأبعادًا وزمنًا، كأنه فقرة من حياة اقتنيت وحفظت فوق سطح قماش مشدود على أربعة أضلاع خشبية، وتكاد الوجوه المرسومة ألا تثبت، تنتابها إيماءات رهيفة نحو جهةٍ أو أخرى ولا يلتقطها إلا قلب منتبه، وبعد متابعة لاحظت أن الوجوه كلها دائمة التحرك، منها ما يتجه إلى عصفور على شجرة قريبة، أو إلى غمامة عابرة، وإذا حدَّقت في أحدها فلربما التفت

(*) فيولين (Violin): آلة موسيقية ذات أربعة أوتار، من أشهر وأهم الآلات التي تُستخدم في الموسيقى الكلاسيكية.

إليك وبادلك التحديق، وقد يلبث الوجه برهة قبل أن يومئ بتبسُّم خافت ينصرف بعده إلى شأن آخر أو يعود إلى سكون، وقد يدأب وجه بين حين وآخر على انتفاضٍ خافت ينحي به خصلات من شعر تهوشت فوق جبهته أو عابثها نسيم عابر، بل إنني كنت ألحظ أحيانًا وجهًا من هذه الوجوه يتعلَّق بواحد من المارَّة فيتبعه، يوشك الشغف أن يقتلعه من لوحته فيخرج منها، وإذا ابتعد المارُّ وتعذرت رؤيته ربما كست الوجهَ مسحةٌ من أسى لا تخفى ثم لا تلبث أن تسلّمه إلى سكون جديد، وتحتضن المعرضَ المفتوحَ أغصانٌ متشابكة كثيفة لشجرة عتيقة تحميه من تغيرات الطقس فلا يصيبه مطر ولا حَرّ بضرر كبير، وبعدما مرَّ وقت أدركت أن تيارات خافتة تمرّ بين الأغصان صعودًا وهبوطًا توازن حرارة الهواء مهما تغيرت الفصول أو تقلَّب الطقس، وفي نهاية كل يوم يلمّ هوجو لوحاته ويطوي معرضه الصغير في كشك خشبي أنيق بجوار الشجرة التي يستقرّ عادة تحتها، ثم تعارفنا وصار يدور بيننا حديث ودخان، كلما قلَّ انشغاله بالرسم وانشغالي بالتأمل أو التجوال تكلمنا في الفن والرسم وأشياء أخرى ذات صلة، وعرفت أن له جاليري ومرسمًا في المدينة نفسها.

جذبتني أجواء المكان وأحواله الفريدة ولفتني الرسم الملهم فصرت كلما ذهبت إلى هناك أمطُّ الوقت لأطيل أمد استمتاعي، وبعد طوافي اليومي كنت أنتهي إلى مقعد خشبي في مواجهة اللوحات، ليس بيني وبين الوجوه إلا طرقة مرصوفة ببلاطات مُلونة كفسيفساء رومانية شكلها مبهج وتتخللها عُشبات خضراء هنا وهناك، وتمتدّ الطرقة لتنتهي إلى سياج من الحديد المزخرف، عنده

ما يشبه مستعمرة للقطط تمرح فيها كما تشاء، وفي جوارها طيور كثيرة ملوّنة ورمادية ومخططة وبيضاء تطير وتحطّ وتلهو وتمارس الحياة، وفي المحيط انسجام وخفة، واعتدت أن أحمل إليهم حفنة من الحبوب أنثرها وسطهم فيلتقطوها في مرح.

نمت بيني وبين الحديقة ألفة ومحبة بمرور الوقت، وبدأت أيامي تنشغل بأحداث صغيرة متناثرة وجديدة، وبدأت بعد طول كمون أفكر في أشياء أفعلها أو أرتب لفعلها، أعيد النظر في نهج التخلي الذي التزمته منذ فترة، ثم انتابني شغف جديد لم أعرف له سببًا بجمع الأيام وتخزينها، وفي مرة رأيت في الحلم أني حصلت على دورة تعلمت فيها كيف أعتصر اليوم الذي يبدأ لطيفًا ويمرّ بخفة، وأني طوَّرتُ طريقة تجعلني أقتنيه وأحبس خلاصته في قنينة صغيرة، راكمت واحدة فوق الأخرى حتى نفد ما كان لديَّ منها فنزلت إلى شارع السوق القديمة لأحصل على مزيد، وهناك وجدت دكانًا له واجهة كبيرة خضراء من خشب وزجاج، وله فاترينة صُفَّت فيها أصناف من قنينات ملونة وغير ملونة، وفي الداخل أشياء كثيرة قديمة معروضة للبيع، بعضها تخطى عمره عشرات أو ربما مئات السنين، الرجل نفسه صاحب الدكان بدا كأن عمره أقدم من الأشياء التي يبيعها، فوق الفاترينة لافتة صغيرة مكتوبة بخط رشيق «شون من زمان».

عدتُ إلى غرفتي بغنيمة من قِنينات كثيرة أحجامها وأشكالها متنوعة وواصلت غوايتي، يمضي وقتٌ لا أنتبه له وأنا غارق في قلب مصفوفة كبيرة من القنينات، جعلت لها نسقًا عنقوديًّا

يسهل الوصول إلى أيٍّ منها واستعادة ما حبسته فيها من أيام وساعات وأنصاف ليالٍ من الأرق.

في وقت لاحق سوف تكثر خروجاتنا أنا وسكارليت وسوف نذهب فيما نذهب إلى هذه السوق القديمة، سوف يصيبني بعض اندهاش عندما أجد هذا الدكان في الواقع وبالحقيقة هناك يشبه إلى حدٍّ كبير ما رأيته في الحلم.

في حياتي كلها لم أكن أمضي وقتًا مهما قصر ويدي ساكنة لا ترسم شيئًا أو حتى وأنا لا أعالج تصورًا ما أو فكرة في خيالي، لكن أيامًا كثيرة مرَّت مؤخرًا بل شهور وأنا لا أمدّ يدي إلى لوحة رسم، وظللت أحاول أن أدفع نفسي بعيدًا عن الورق والقلم لكن معالم المدينة وطرقاتها ومبانيها، حتى روحها وهذا العالم الصغير في حديقتها، كانوا يدفعونني من اتجاه معاكس وتشاغلني الصور والأفكار فصرت أسجل اسكتشات(*) صغيرة بغير انتظام وأنا أنوي أن أتخلص منها لاحقًا، أوراق متفرقة ربما بعضها كان مناديل مائدة أحصل عليها من مطعم الفندق أو من أي مكان آخر، وبالتدريج لم أستطع أن أقاوم اللقطات التي دأبت على أن تنبعث بقوة من هنا أو من هناك، أتصورها مرسومة في لوحات كبيرة، أمكنني فقط أن أنتشل نفسي من الإغراق في ذلك، فصرت أتوقف دائمًا في منتصف تلك التصورات وأمنعها من أن تكتمل أو تصبو إلى أن تتشكّل منها

(*) اسكتش (Sketch): رسم سريع هدفه تسجيل فكرة أو أفكار قبل أن تغيب عن ذهن الفنان.

لوحة، ويبدو أن كل هذا كان يتجمع في شكل شحنات داخلية ولا يزول ببساطة، وعندما مررت برسام الحديقة ورأيت أسلوبه الساحر ولوحاته الرائعة فاجأتني طاقة قوية لا يمكن وصفها تندفع من القلب مباشرة، بقيت أمرّ بلوحاته وأتوقف طويلًا عند كل واحدة ثم أمضي إلى نهاية الصف وأعود من جديد أتفحصهم كأني أرى رسمًا لأول مرة في حياتي، خرجت منتشيًا من الحديقة وفي منتصف الشارع الذي يفضي إليها وجدت معرضًا يبيع ويعرض لوحات فنية متنوعة ومن بينها كانت لوحات أخرى له، توقفت من جديد أمامها أتأملها، في ركن من المعرض تراصت مجموعات من الأدوات والخامات الفنية؛ دفاتر اسكتشات ولوحات فارغة وأقلام وألوان، وبشكل تلقائي وجدت نفسي في وسطها منهمكًا في قراءة مواصفاتها والتعرف إليها، وأعجبني دفتر منها لأوراقه ملمس طالما أحببته في الرسم بقلم الرصاص، بشكل تلقائي التقطته ودفعت ثمنه وخرجت به، لم أنتبه إلى ما فعلت كأنني مبرمَج مسبقًا على هذا، في الشارع تذكّرت أن شهورًا قد مرت وأنا أطفو على هامش الحياة بلا اندماج جدي في مشروع فني معين، أوشكت أن أعود إلى المعرض وأعيد إليهم الدفتر لكن الحرج منعني، قررت أن أتجاهل الأمر كأنه لم يكن، وواصلت طريقي إلى شاطئ المحيط، تركت هناك كل ما راودني طوال اليوم من أفكار وهموم وعُدت إلى الفندق خاليًا، صعدت مباشرة إلى المطعم وطلبت عشاءً، كان الهواء لطيفًا فانتقلت إلى جوار واحدة من نوافذه المتسعة وفتحت الدفتر وبدأت أرسم، ومر وقتٌ لم أفعل فيه أكثر من التطلع في وجوه الحاضرين ونقل ملامحهم إلى الورق إلى أن اكتشفت

أنه لم يبقَ فارغًا من أوراق الدفتر إلا ورقتان فقط، ثم طلبت قهوة ووقفت في النافذة أتأمل الشارع وهو يبتلّ من جديد بفعل المطر، مع طعم القهوة تذكرت موكا فحملت الكوب ونزلت بسرعة إلى غرفتي، وضعت لها طعامًا وحاولت أن أداعبها لكنها كانت جائعة ومشغولة تمامًا بأكلها، يبدو أنني تأخرت عليها كثيرًا، تمددت على فراشي حتى تنتهي ولكنها لم تعرني أي اهتمام ورُحتُ في النوم.

ظللت طوال الحلم أتحسس بأطراف أصابعي ورق دفتر الرسم وأقلب صفحاته وهي ما زالت فارغة، أفكر في تلك الدفاتر الأخرى التي رأيتها في المعرض وفي عبوات الألوان وأنواعها، رأيت نفسي أقف أمام لوحة وكلما رسمت فيها شيئًا فإنها تعود فارغة من جديد فأضعها وأتناول غيرها فيتكرر الأمر، ثم رأيت أنني في قصر كبير تفصيلاته مبهرة أريد أن أسجل ما أراه ولكنني مقيد ولا أستطيع، بقيت أكتقي بالفرجة حتى انتهاء الحلم، في الصباح أيقظتني موكا واكتشفت أنني نمت بملابسي، بعد قليل تذكرت دفتر الرسم وبحثت عنه ولكنه لم يكن في الغرفة.

باب القمر

(تحکیه سکارلیت)

مرَّت فتاة صغيرة وعلى رأسها قبعة من صوف أحمر، تحمل لوحًا خشبيًّا معلقًا على كتفيْها ومستندًا إلى خصرها بحزام برتقالي، في اللوح تراصَّت قلوب كثيرة مغلفة بورق نصف شفاف وملون، تمشي بهدوء وكأنها في زمن موازٍ له توقيته الخاص، بإيقاع رتيب وصوت هامس تنادي على بضاعتها، تأملتُها طويلًا وأنا أحاول أن أفهم هل هذه قلوب حقيقية لبشر حقيقيين، أم أنها نوع من الحلوى أو المملحات، فكرت أن أسألها ثم ترددت ثم تراجعت، لم أحب أن أبدو كمَن لا يعلم شيئًا، بدا مالك أيضًا مأخوذًا بما تعرضه الفتاة، تابعها بنظراته من بعيد حتى مرَّت بنا وتجاوزتنا في مسارها في الحديقة التي جلسنا فيها.

في الأيام الأربعة الماضية لم يتوقف المطر ولا لدقيقة واحدة، قال مالك إنه يحب المطر حقًّا لكن ليس بهذه الكثافة كما أن السيول تُثير خوفه، البلاد التي جاء منها مطرها قليل، لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله في الشارع أو في أماكن أخرى ففضّلنا جميعًا البقاء بالداخل، عوض السيد ماو الحبسة الإجبارية بحكايات لا تكاد تنتهي عن كل شيء تقريبًا، ثلاثة أرباع قرن من الترحال والمشاهدة والعلاقات المتشابكة عُمرٌ لا يُستهان به، ملأت موكا الأجواء بالمرح بطاقتها التي لا تنفد، لا أعرف عن ماضيها لكن بدأت أتصور أنها لم تألف حياة الشوارع قط وأنها ولدت وتربت وسط آدميين، أستطيع

أن أفرِّق جيدًا بين قطط الشوارع وبين القطط التي تربت وسط أسرة هذبتها وعلمتها وأعطاها أفرادها من طباعهم، تصير كائنًا وسطًا بين الإنسان وبين فصيلتها الأصلية.

الكرسي المتحرك الذي أحضرته شركة التأمين لماو منحه قدرًا لا بأس به من الحرية انعكس على روحه وعلى وجهه، ربما أسهم أيضًا في إزاحة اكتئاب محتمل، رغم المحرك الكهربائي الذي يتيح لماو أن يقود الكرسي بنفسه ظل مالك يفضِّل أن يدفعه أو يمشيا معًا كلما كان في الجوار، بدا لي أنه يعي جيدًا أثر الصحبة والتشارك في اجتياز الأوقات الصعبة وكان جميلًا منه أنه لا يبخل بوقته من أجل ماو، صار لهما موقع شبه ثابت أمام نافذة كبيرة أتاحت لكليْهما ملاحظة دقيقة لحركة المطر، كثافته ودرجة ميل سيوله وتحول اتجاهه بفعل الريح وتفصيلات أخرى، لم أكن أعرف ما إذا كانت تلك التفصيلات الصغيرة تهم الرجال حقًّا أم أن لديهم عادة مهارات فائقة في إفراغ الوقت من مضمونه العسِر.

لمرَّات عديدة رأيت مع مالك قنينات صغيرة ملونة، بدت كأنها زجاجات عِطر شرقي قديم، لديه منها مجموعة متنوعة الألوان يهتم بتنسيقها وترتيبها، تكلمت مع ماو حول الكرسي وأخبرته أنه لولا اهتمام مالك ومتابعته فربما ما كنا تمكنا من الحصول عليه، زادت مساحة الامتنان بينهما وبدأت أراهما كصديقيْن عرف بعضهما بعضًا منذ زمن.

أرسل مطعم الفندق إلى مكتب الاستقبال بدفتر رسم وجدوه عندهم، قالوا إن أحد النزلاء نسيه هناك بالأمس، طلبوا مني أن أُعلّق

ورقة في لوحة الإعلانات تُعلن عنه حتى نُعيده لصاحبه، لكني خمنت أن الدفتر ربما يخصّ مالك، لأكثر من مرة رأيته وهو يرسم على ورق صغير ويتركه أو ينساه أحيانًا عند ماو أو في المطعم، وكنت كلما رأيته يرسم تكوّن لديَّ فضول أن أرى ما يرسم لكني كنت أخجل من طلب هذا، الآن جاءتني الرسومات بنفسها لكي أراها لكني خجلت من فتح الدفتر وكتمت فضولي، رفعت سماعة التليفون وسألته مباشرة وعندما اتضح أنه يخصه بالفعل أرسلته إليه مع واحدة من عاملات الفندق.

انتهت وردية عملي وصعدت لأطمئن على ماو وأتابع حالته، مالك كان هناك وشكرني على دفتر الرسم، تكلم ماو كثيرًا عن رواياته العديدة التي كتبها في مراحل حياته؛ موضوعاتها وشخوصها وبعض ما حققته من نجاح، تكلم أيضًا عن الأفكار التي تأتيه عندما يكون منهمكًا في مشروع كتابة جديد، كيف يُرتبها وينسقها ليصنع منها شيئًا جديرًا بالقراءة، كلمنا أيضًا عن الأرق الذي قد يصيبه وكيف تمر ليالٍ بطولها لا ينام فيها عندما يكون على وشك الانتهاء من قصة أو رواية، لم أرَ في حياتي شخصًا مغرمًا بالكتابة بهذا الشكل وأحببت كثيرًا الاستماع إليه، كنت أفكر وأنا أتابع كلماته كيف أنه شخص يختلف عن كثيرين ممن عرفت، مالك أيضًا كان شخصًا من نوع آخر، وغمرني شعور بالامتنان لعملي في الفندق الذي أتاح لي أن ألتقيهما.

كلَّمنا مالك عن الرسم وعن الفن والمدارس الفنية عمومًا، تكوَّمت لديه رزمة من الرسوم استخدم فيها أوراقًا اقترضها من ماو

قبل أن يستخدم دفتره الجديد، صار لا يتوقف عن الشخبطة على الورق بأشكال غير مكتملة ورسومات ناقصة تبدو كأنها بلا هدف، ربما ينتبه ويعلق يده فوق الرسم ليتابع موضوعًا يتكلم فيه ماو، يعلق أو يضحك أو تذهب عيناه بعيدًا في صمت، ظللت أتتبع أوراقه لأجد شكلًا أو رسمًا يمكنني أن أفتح معه موضوعًا بشأنه، لكن هذا لم يحدث إلا بعد أن أنفق حبرًا كثيرًا على شخبطات فوق أوراق كثيرة تكوَّمت أمامه وبجانبه، كان ماو يتكلم عن شخصية روائية ابتكرها في واحدة من أعماله، يصفها عبر الأحداث المتوالية ويتكلم عن تطور صورتها مع تطور شخصيتها، كنت منتبهة عندما خلَّص مالك يده من الحركة العشوائية غير المنتظمة لينتقل إلى خطوط أكثر دقة وتحديدًا، ومن جري سريع بلا توقف فوق الورق إلى حركة هادئة تصنع شيئًا له معالم محددة؛ وجهًا ثم جسدًا ثم وجوهًا أخرى ثم تكوِّن مشهدًا ثم مشاهد أخرى، انتهى إلى عدة إطارات سجل فيها الشخصية التي تكلم عنها ماو في مختلف حالتها. تناول ماو الورقة وتحرك بالكرسي ليضعها على مسافة منا بحيث نراها معًا، أبدى إعجابه بها ومضيا يتكلمان عن شخصيات وتفصيلات أخرى، التقطت الورقة وأخذت أتأملها وهي في يدي، بالنسبة لي كانت قطعة فنية جميلة مُحملة بتعبيرات ومعانٍ لم أرَ مثلها كثيرًا من قبل.

تناول مالك مني الورق ليشرع في رسم جديد لشخصية جديدة يتكلم ماو عنها، ثم صار هذا هو المشهد الرئيس الذي يتكرر كثيرًا؛ ماو يحكي ومالك يرسم، وإذا صمت ماو قليلًا يتسلم مالك ناصية الحكي، أحيانًا كان يستغرق مالك في الرسم أو يستغرق ماو

في الكتابة فينفصلان عن العالم وما فيه، ربما يكتشفان بعد قليل أن واحدًا منَّا كان يتكلم بينما الآخر لا ينصت، وفي الخلفية دائمًا أنا وموكا نستمتع بالجو الحميم وربما نفعل أشياءَ أخرى صغيرة.

في هذا الأسبوع كان عليَّ أن أذهب إلى ميناء المدينة لألتقط مجموعة صور أقدمها كمشروع دراسي، لكن المطر المتصل لم يسمح لي بالخروج فبقيت لمعظم الوقت بصحبتهما، أسبَل ما تبقى من ضوء الشمس الغائبة على مشهدهم بينما هم مستغرقون في عملهم، غلالة من النعومة والغبش اللطيف، تناولت الكاميرا وبدأت ألتقط صورًا أدرس فيها أثر الضوء الخافت في المشهد، استخدمت في اللقطات درجات متنوعة من كثافات الظلال ورأيت كيف يمكن اصطياد مناطق التباين لإنشاء تكوين مُبتكَر، كنت حريصة على أن يبقى المشهد بسيط التركيب، أخذت لقطات لمالك وهو يرسم أو لماو وهو يحكي أو يتأمل الرسم في صمت، ولقطات لهما معًا وهما منهمكان في مناقشة حامية، ولقطات لموكا أيضًا وهي تفعل أشياء مضحكة أو وهي مستغرقة في نوم عميق، وتعودت أن أتصل بماو في المساء بعد أن أصل إلى شقتي لأطمئن على تناوله لجرعات دوائه المسائية، وغالبًا ما كنت أجد مالك بصحبته.

ذات مساء كنت أقشر تفاحة صغيرة عندما انزلقت السكين مني لتجرح باطن يدي، صرت أجد صعوبة في حمل الكاميرا ويؤلمني ثقلها إذا أسندتها على كف يدي فلا تستقر بشكل مناسب، اضطررت لاستخدام حامل لتثبيت الكاميرا، ولكن هذا أيضًا لم يكن سهلًا فعاونني مالك، حاول هو وماو أن يفعلا الكثير لتخفيف الألم،

ظل يلح عليَّ نوع لطيف من المشاعر تجاه هذا، ولكنني لم أستطع أن أفهمه بشكل دقيق، هذا النوع من القلق وهذا الاهتمام، تلك المتابعة والسؤال المستمر كلها أشياء كنت أفتقدها منذ مدة طويلة، وكلها تشعرني حقًّا بدفء كبير، تجعلني أفكر كيف أن الوحدة يمكنها أن تمتصّ الكلمات والموضوعات وتجفف الألسنة وتترك الإنسان قليل الانتباه لما قد يبديه الآخرون من اهتمام، لم ألحظ هذا إلا عندما عدت في مرة إلى شقتي وجلست أستعيد ما دار بيننا من حوارات وأتذكر سؤالهم المتكرر، ثم حدث أن نسيَ مالك دفتر رسوماته في المطعم لمرة ثانية فأرسلوه إليَّ كالمرة السابقة، كان الوقت خاليًا من الزبائن، وفي هذه المرة لم أستطع أن أقاوم فضولي ففتحته وأخذت أتفرج على الرسوم التي حفل بها، وجدت في بعض الصفحات وجوهًا لم تكن غريبة عليَّ، قَصة الشعر هذه وهذا الوجه، هذه البلوزة وتلك الحمالات العريضة، رأيتها من قبل، هل تشبهني؟ هذه طريقتي في الجلوس وهكذا أضع ذراعيَّ متقاطعتين عندما أنصت باهتمام! نفس طريقتي في الإمساك بالكاميرا، هذه اليد المصابة! هذه أنا؟ حلوة هكذا؟

فجأة سمعت صوتًا يأتي من جانبي:

ـ كل هذه الابتسامة العريضة؟ ماذا في هذا الورق؟

أفزعني الصوت والتفتُّ فإذا بها زميلتي في مكتب الاستقبال بعد أن بقيَت لبرهة تختلس النظر من بعيد، ثم اقتربت ولم أستطع أن أخفي الورق فأمكنها أن ترى الرسوم، وبالطبع استطاعت أن تتعرف عليّ فيها، لحظتها شعرت بوجهي كله ساخنًا جدًّا.

كانت له طريقة مميزة في تحريك ملامح الوجوه للتعبير عن مواقف معينة، في كل الرسوم دراما وقصة صغيرة تحكيها الشخصية المرسومة، انهمكنا تمامًا في الفرجة على الرسوم ونسيت أن أتصل به لأخبره عن الدفتر إلى أن فوجئت به واقفًا أمامي يتابعني دون أن يتكلم، فزعتُ ثانية عندما اكتشفت وجوده وانسحبتْ زميلتي بسرعة وهي تضحك، هو أيضًا ضحك وحاول أن يُلطف الموقف واعتذر واعتذرت، قال إنه لن يسامحني إلا إذا صارحته برأيي وما أعجبني وما لم يعجبني، ثم قال إنه ذهب وعاد مرتيْن ولم يحب أن يقطع استغراقي في المشاهدة، زاد هذا من خجلي ولفتني أسلوبه اللطيف والهادئ، واعتذرت ثانية عن فضولي وطبعًا عبّرت له عن إعجابي بالرسوم، وحتى لا يظن أنني أجامله فقط لأتخلص من الموقف الحرج حاولت أن أعبر عن أشياء أعجبتني في رسوم معينة، وبدا أن هذا أسعده فعلّق باهتمام موضحًا أن هذا يحتاج إلى وقت مطوّل لمناقشته.

فيما بعد ذلك أخبرته عن علاقتي الخاصة بالقمر وضوئه وذكريات طفولتي فتصرّف بشكل رائع، حمل ألوانه وأدواته وأتى ليرسم على الحائط قرب سقف حجرة نومي نافذة مستديرة لضوء القمر يمرّ منها ويملأ المكان بالأزرق البهيج، حتى في الليالي التي يكون فيها هلالًا يظل يمر ضوءُه كثيفًا كضوء بدر تامِّ الاستدارة، تنتشي روحي في حضوره وأعود من جديد طفلة أفتح صدري للعالم وأنتظر مِنَحَه.

فارِق السن بيننا توَّج شعره بخيوط بيضاء أكسبته وسامة ثم ترك خطوطًا دقيقة في وجهه، تغطي جديته طبقة من المرح لا يتخلى

عنها، ماذا يفعل في هذه الحياة، وما الذي جاء به إلى هنا، وماذا يريد؟ رغم مظهره الجاد وتبسُّطه في الحديث فإن جوانب كثيرة من شخصيته بقيت غامضة لم يسقط عليها ضوء.

تجربتي مع الرجال كانت محدودة، لا أدري لماذا ولكن لم يحاول أحدهم حتى الآن أن يتخطى حدود زمالة الدراسة أو العمل.

في الشقة انهمكت في طباعة كمية من الصور التي التقطتها، أطبعها بالطريقة القديمة التي كان يستخدمها المصورون قبل قرن أو أكثر، أحب أن أرى العالم كما كانوا يرونه وقتها، فلا بد أنه كان أكثر صفاءً ونقاءً، عندما قلت هذا لماو نبّهني إلى أن هذه الأيام قد شهدت حربَين عالميتَين راح ضحيتهما ملايين من الأبرياء، وجدت كلامه صحيحًا بالطبع وتعجبت كيف أنني لم أنتبه لهذا من قبل! أيقنت أن أمامي الكثير لأتعلمه على هذه الأرض، رغم ذلك ما زلت أفضل أن أرى العالم بالأبيض والأسود، هكذا يكون كل شيء أكثر لطفًا وأكثر راحة، حتى أحلامي اعتدت دائمًا أن أراها بالأبيض والأسود كالأفلام القديمة، أحيانًا أتصور أنه لا يمكن التعبير عن أخلَص المشاعر وأكثرها دفئًا إلا بالأبيض والأسـود، ربما أن الألوان الكثيرة مشوشة ويمكن أن يضيع فيها المعنى بسهولة، كذلك العالم المجرد للأفكار لا يمكن أن يكون بكل هذه الألوان التي في الطبيعة، عندما أترك الدنيا كلها وأذهب في وضع من أوضاع اليوجا، كثيرًا ما كان يلاحقني هذا الموضوع، أتساءل: لماذا وضعَ اللهُ كل هذه الألوان في الكون؟ ولماذا لم يخلق جزءًا منه بلا ألوان؟ هل يمكن بعد عدة آلاف من السنوات أن يتطور العالم ليصبح بالأبيض والأسود فقط؟

هل سيكون هذا تطورًا رائعًا؟ قال مالك إن الأسهل أن يتطور الإنسان فيرى بالأبيض والأسود.

أحببت الاستماع إلى حديثهما المشوق وهما يعملان في غرفة ماو وحاولت دائمًا أن أمنع موكا من التشويش عليهما في أثناء ذلك، بعد توقف المطر كان لا بدَّ من الخروج إلى أي مكان مفتوح بلا سقف ولا نوافذ فخرجنا معًا إلى الحديقة، ذهبت موكا إلى القطط الممدَّدة تحت الشمس الدافئة في منطقتهم المستقلة هناك، بادلَتهم التحية ونوعًا من الملاطفة ولا بدَّ أنهم بدءوا يتحاكوْن عن أحوال ومستجدات حياتهم القططية، خشيَ مالك أن تحب صحبتهم أو أن يغويها قط وسيم بالبقاء لتنعم بمزيد من الشمس ومزيد من الحرية، شمس بلا حدود وحرية بلا حدود، قام فجأة وراح ليحضرها من هناك، تمشيتُ في أركان الحديقة أبحث عن لقطات جديدة وشاهدت من بعيد ماو يتحدث مع فتاة القلوب بينما انطلق مالك في جولة حرَّة يتفقد أركان الحديقة، يتوقف أحيانا عند مجموعة من الزهور أو حوض مخصص لنباتات بعينها، ربما يخرج تليفونه ويلتقط صورة أو يأخذ اسكتشًا سريعًا ثم يعود للتجول.

تعبت من المشي فعُدت إلى حيث جلس ماو، وضعت حقيبتي وجلست أراجع اللقطات التي سجلتها على الكاميرا، عاد مالك بعد قليل وجلس ثم أسند دفتره وأطلق يده على الورق بخطوط سريعة يرسم شكلًا ما ثم فرد ذراعه بالورقة أمامه يتأمل ما رسم من بعيد، هبط عصفور ملون في مسار مقوس من السماء واختفى فيما وراء ماو الذي أخرج سيجارة وأشعلها بهدوء بينما تعلقت عيناه بسطور كتبها للتو، أسند الورقة بإصبعيه.

أراح مالك أوراقه إلى جانبه ونظر إلى ماو:

ـ لا شيء غير الكتابة يضبط مزاجك يا صديقي..

أخرج ماو دفعة دخان ببطء مع كلماته:

ـ انظر، هل تعرف الفردوس؟

اخترق جملته تغريد لبضعة عصافير تلهو بجوارنا قبل أن يواصلها:

ـ إنها تضعك قريبًا من الفردوس، على بُعد شارع واحد فقط، لكنها أيضًا لا تخلو من معاناة وآلام.

ـ ربما أن أجمل ما فيها هو أن صوتك يصل، يقرؤك الناس.

تأمله بهدوء..

ـ تغير الزمن، لم يعُد هناك قراء.

ضيَّق عينيْه وتكلم ببطء كمَن يراجع أو يصحح عبارته قبل أن يقول:

ـ حسنًا.. قليلون ربما.

أنت تمضي سنوات في نضال مع الأفكار والشخصيات، تستهلك مخزون متاجر الحي من القهوة إلى أن تنتهي من الكتابة وبعدها تقدم كتابك للناشر وأنت تظن أنك انتهيت، ثم تكتشف بعد قليل خطأ ظنك!

يتسلمه الناشر ويضعه في أحد أدراجه لينتظر دوره، بعد ذلك تجد نفسك تدفع فاتورة تليفون متضاعفة لعدة أشهر تالية في مكالمات لا طائل من ورائها لتحصل على معلومة واحدة صحيحة

عن موعد نشر الكتاب، ويمضي الوقت حتى تيأس وتلقي بتليفونك في البحر، وعندها فقط تأتي اللحظة الحرجة التي لا تتكرر كثيرًا على سطح الأرض، تأتيك المكالمة لتخبرك بكل سرور عن موعد النشر، أسميه موعدًا مع السعادة.

ثم يطبع ويسلم الكتاب لموزِّع الكتب، وهو بدوره يخفيه في رفٍّ سفلي في معرض الكتب، ويملأ الأرفف الظاهرة بالكتب سريعة البيع، ساندوتشات سريعة التحضير وسهلة الهضم وتشبه ملايين غيرها تنتجها المطاعم والمخابز كل يوم، وإذا كان كتابك من هذا النوع فاسترخِ وانتظر عوائد البيع، أما إن كنت من المجربين الذين يبحثون عن خلَق جديد وورق مختلف فأنت وشأنك.

مصاعب لا يمكنك أن تتوقعها أو تتحسَّب لها..

ثم تعد زبائنك على أصابع اليد الواحدة، ربما يأتي يوم ممطر ويذهب شخص بائس لشراء بيتزا أو أي شيء آخر فيداهمه المطر بينما يمرّ بالصدفة من أمام مكتبة فيدخلها ليحتمي من المطر ولا يجد ما يفعله فيظل يقلّب في الكتب حتى يعثر على كتابك، ويفكر أن يشتريه ثم يتراجع ويفضّل البيتزا التي خرج من أجلها، وعندما يلتقي فتاته يحكي لها ما حدث فتظنّ أنه شغوف بالكتاب فتشتريه له كهدية سهلة ورخيصة، سوف يجد نفسه مضطرًّا لقراءته ليظهر بمظهر المثقف أمامها؛ وهذا.. أو أشياء غبية كهذا هي ما يجعل الكتب تُقرأ.

غمرتنا نوبة ممتدة من الضحك وهو مستغرق في سرد سلسلة مآسي حياته بسخرية لا مثيل لها حتى عاد مالك تدريجيًّا إلى دفع يده

بنصف نشاط فوق الورق، بدأ يضع ظِلالًا هنا وهناك ليبرز عناصر وشخوصًا تتكوَّن ببطء لكن ما يرسمه لم تظهر ملامحه بعدُ، فكرتُ أنه ربما سيُعيد إنشاء كل هذا بالألوان على لوحة مربعة كبيرة، لكن لا بدَّ أن يوفر لها مكانًا أولًا، بعد قليل سوف يطرح فكرة البحث عن مرسم على ماو الذي سوف يشجعه عليها، سوف يستشيراني في الموضوع وسوف أقترح عليهما أفكارًا وأماكن كثيرة.

رفع ماو الورقة بحرص في الهواء يلقي عليها نظرة أخيرة، ثم فتح المغلف السميك الذي أمامه، رتَّبها بداخله والتفت إلى مالك..

ـ ولم يكن هذا إلا أقل متاعب المهنة، أصعبها هو ما يتعلق بالشخصيات التي توظفها في كتابتك، لتكتب عن فَهْم سيكون عليك أن تعيش حياة كل واحد منهم بكل ما فيها، تحزن إذا حزن وتنكسر إذا انكسر وتمضي في هذا الطريق أو ذاك مثلما يمضي، تختار مثلما يختار، ربما حتى تقع في الحب ـ في الواقع ـ مثلما يقع هو في الحب، وربما تتعذب بالانتظار كما ينتظر، تُمضي ليلة في قصر وليلة أخرى في كوخ على شاطئ بحيرة سوف يهاجمها وحش في منتصف الليل لكي تشعر بنفس الرعب، تكرِّر هذا مع كل شخصية من شخصياتك، لا يوجد ما هو أكثر بؤسًا من هذا!

رفع كفَّ يده في الهواء وهوى بها على فخذه فأحدث صوتًا جعل موكا تنتفض.

ـ سيكون عليك أن تعيش كل شطط يصيب كل واحد من شخصياتك، تعيش أيضًا كل أهوائه، ربما يتحوّل إلى مجرم حرب

أو قاتل، ربما يكتفي بالحلم حتى يصحو، حتى هذا سيكون عليك أن تُراودك كل أحلامه..

أطلق ضحكة صاخبة وراحت يده اليسرى تتخلل شعره الرمادي وتعبره إلى الجانب الآخر من رأسه.

ـ الأمر كله يبعث على الجنون، جنون تام..

ثم تمر عليك ليالٍ صعبة لا تذوق فيها طعم النوم؛ لأن واحدًا من شخصيات روايتك تركته يعاني على صفحاتها، صنعت له أزمة ربما لا يملك خلاصًا منها، يتعذَّب إثر فَقْد أو خيانة، ينفطر قلبك لوجعه أو لحزنها.

ـ كأنك تحدثني عما كانت تفعله آلهة الإغريق مع البشر..

ـ لكن الآلهة لا تحزن، فلديها من الحكمة والمعرفة ما يمنعها من الحزن، لديها أيضًا الجلال، أما نحن فالحزن عندنا ربما يجرح أو حتى يقتل.

ثم أضاف وهو يضحك:

ـ ثم إن الآلهة ليس لديها وقت يكفي للحزن، لا بدَّ أن أمورًا كثيرة معلقة بالسماء يعتنون بها.

ـ طيب ألا تفرح أحيانًا أو تنتصر، شخصيات الروايات؟

ـ تفرح لا شكَّ، لكن الفرح ينتهي بسرعة ولا يترك أثرًا، لا علامات في الجسد ولا كسورًا في القلب، الحزن هو الذي يترك أثرًا، أثر الحزن لا مثيل له.

وكلما عاينت مزيدًا مما يمرّ به الناس، على الأرض أو على الورق ترسّخ لديك يقين بأن الحياة ذاتها فعل قاسٍ، بل شديد القسوة.

تدريجيًّا تحوَّلت الابتسامة على وجه مالك إلى تعبير باهت، بينما أرسل ماو ظهره إلى الخلف في استرخاء، مطَّ جسده وشبّك يديْه خلف رأسه وواصل حديثه:

ـ لم تعد كتابة الروايات ونشرها من أجل أن يشتريها القراء ويقرءونها تستهويني كثيرًا، ما يشغلني الآن هو خلق الشخصيات ودفعها إلى الحياة، تمشي على الأرض بين الناس تحيا حياتها وتتصرف تصرفاتها وتأخذ وتعطي وتتحمل نتائج أفعالها، هذا أمتع وأجمل وهو فاتحة الكتابة الجديدة، الزمن القادم يجب أن يكون مختلفًا عما مضى.. ربما بكثير.

أحيانًا تأتيني شخصيات تحبّ أن توجد أو تعيش مغامرة ما فأكتبها وأطلقها في البيئة التي تناسبها، أوفّر لها أسباب المتعة وسُبل الحياة ثم أجلس وأشاهد خياراتها وماذا تفعل.

بعد الحديث الطويل بدت الحاجة عاجلة إلى تغييرٍ ما فدعوتهما إلى تمشية خارج الحديقة، مضينا نتجوَّل بلا هدف في الشوارع المحيطة، يجاور الحديقة معبد يقطع شارعًا طويلًا وفيه سوق شعبية مسائية، اشتريت لموكا باقة من أدوات صغيرة للعناية بالقطط، واتجه مالك إلى دكان لبيع الأشياء القديمة، أعجبتني واجهة الدكان فالتقطت له عدة صور من زوايا مختلفة.

ـ ماذا؟ «شون من زمان»؟

ـ الرجل صاحب الدكان اسمه «شون».

دخلنا إلى الدكان الذي بدا أوسع بكثير مما توحي واجهته العتيقة وبدأت أعيننا تتحرك على الأشياء الكثيرة المتراصة هنا وهناك، فوق الأرفف وعلى الأرض، أطل وجه مُنهك من وسط الأشياء القديمة وارتسمت عليه ابتسامة مرحِّبة، همستُ: لا بدّ أن هذا هو شون نفسه.

كان التراب المكوم فوق الأشياء سخيًّا جدًّا، وفي المواجهة تراصت عدة فاترينات زجاجية مغلقة على ما بداخلها كأنها في عرض متحفيّ، على أرفف واحدة منها تراصَّت كتب مجلدة وأدوات منزلية ومكتبية وأشياء كثيرة لا تُحصى، في المنتصف رفٌّ ليس عليه إلا آلة كاتبة قديمة، توقف ماو أمامها يتأملها، عندما تقدم لفحصها وجد أنها من طراز محمول، بطريقة ما يمكن طيها على نفسها لتصبح حقيبة جلدية مزخرفة وأنيقة يمكن حملها والتنقل بها بسهولة، تعلق بها قلب ماو، فكرتُ أنها ربما تُذكره بطفولته أو شبابه، لا بدَّ أن شيئًا كهذا كان اختراعًا رائعًا في حينه، استغرق شون وقتًا طويلًا في البحث عن شريط الحبر الذي سيعيدها إلى العمل ثم اختفى وسط الأشياء، في أثناء ذلك مكث مالك يتفقد كل ما استطاع أن يصل إليه في الدكان الصغير، وجد راديو قديمًا ربما كان ينتمي إلى أول أو ثاني جيل من الراديوات التي عرفتها البشرية، أطلَّ السيد شون من جديد وعلى وجهه ابتسامة انتصار، وجد شريط الحبر بينما كان مالك ينفض بعض الغبار الذي كوَّن طبقة سميكة فوق الراديو، أعطى الشريط لماو

وعاد إلى الراديو، كأي بائع ظلَّ يمدح ويذكر مزاياه العديدة، سحب سلكًا سميكًا من داخله ونظفه ووضعه في قابس الكهرباء، كان عجيبًا أن الراديو أصدر خَروشات وأصوات متقطعة غير مفهومة، لم يقتنع مالك تمامًا بجدوى اقتنائه لكنه أحبَّ شكله وقال إنه سوف يقتنيه كقطعة أثرية ربما لا يوجد لها مثيل، فجأة تذكّر الرجل شيئًا، غاب قليلًا وسط أشيائه وعاد برزمة مغلفة من ورق الكتابة قطعه مناسب لمقاس الآلة الكاتبة، أعطاها لماو ليستخدمها معها، عندما جربها لأول مرة كانت بعضُ مفاتيحها عالقة، وبعض أزرارها مُغطاة بقدر من الصدأ، تركها لشون الذي أعادها جديدة تمامًا كأنها خرجت للتوّ من مصنعها وأرسلها إليه مشحونة بشريط حِبر وبعض الورق.

فوق أحد أرفف الدكان جلست مجموعة من عرائس الماريونيت لفتني تشابه ملامحهم، قال شون إنهم أسرة واحدة؛ أب وأم وبنت وولد، لكن البنت لم تكن معهم، قال: انظري.. هذا الإيشارب يخصها، هذه الحقيبة لها، لكني لا أعرف أين هي.

علق الأب على صدره أكورديون صغيرًا أحمر وحمل الصبي آلة ساكس نحاسية صغيرة تناسب حجمه بينما جلست الأم بينهما وبين يديْها ناي مزخرف وجميل، من على ظهر الأب تدلَّت قبعة من طراز قديم ربما لجمع تبرعات المتفرجين والمتابعين لعروضهم، رفعتُ الكاميرا بصعوبة والتقطتُ لهم صورة جماعية ثم وضعتهم على أحد المقاعد ومكثت أتأملهم، كانت ألوانهم دافئة متناسقة ووجوههم متشابهة، وقعت في غرامهم وطلب شون سعرًا جيدًا

للمجموعة كاملة، قبل أن أدفع أكدت عليه أن يجد دمية البنت المتغيبة فوعد بأنه سوف يبحث عنها وأعطيته عنواني وتليفوني، بعد جولة أخرى سريعة وجدت مجموعة كتب قديمة تصفحتها إلى أن انتقيت منها واحدًا مجلدًا بتجليد فخم وتتدلَّى منه علامات حريرية، تصفحته وكان حافلًا بالخرائط والرسوم اليدوية القيمة بدقة كدقة الفوتوغرافيا، امتلأت صفحاته بهوامش كثيرة وملحوظات بألوان مختلفة، رجعت إلى فهارسه فوجدت أحداثًا ومراحل تاريخية تمتد حتى ما قبل قرون عديدة، بخط مُذهب وسميك كتب على غلافه الداخلي كلمة واحدة باللغة المحلية بحروفها القديمة «التاريخ»، بدا مثيرًا للاهتمام ولم يكن ممكنًا أن أتركه، اشتريته واشتريت كتابًا آخر عنوانه «ناس القمر».

وجد مالك طائرة هليكوبتر من الصفيح ومجموعة من الدبابات والمدافع والصواريخ متنوعة الأشكال يبدو أنها كانت ألعاب أطفال عاشوا قبل عقود، ربما في زمن حرب، أعجبته كثيرًا لكنه اكتفى بالراديو.

توقف ماو أمام فاترينة زجاجية ليس بها إلا قنينات صغيرة، ألوانها مختلفة وأشكالها أيضًا وكلها مصفوفة في مجموعات متجاورة، كل مجموعة متشابهة معًا وبينها وبين ما يجاورها فاصل صغير، أوضح شون أنها زيوت مُحضرة بطرق تقليدية قديمة، بدا كتومًا ولم يحاول أن يخبرنا بالمزيد أو أن يروج لها، وأثار فضولنا جميعًا، ظل ماو يستدرجه إلى أن عرف أنها خلاصات للمشاعر والأحاسيس معتقة منذ أزمنة بعيدة.

كنت أدقق في الكلمات الصغيرة باللغة القديمة المكتوبة على كل قنينة وأمكنني أن أقرأ «زيت روح السعادة»، و«زيت روح الحزن»، و«زيت روح الخشوع»، وأشياء أخرى.

في نهاية جولتنا خرجنا محمَّلين بمشترياتنا وخرج شون معنا، تبين أننا أَخَّرناه عن موعد انصرافه وإغلاق الدكان، مشى أمام مدخله بهدوء حتى وصل إلى ما يشبه دائرتيْن من حديد لامع مثبتتيْن في الأرض، وضع قدمًا فوق كل واحدة منهما وانتظر لثوانٍ حتى سمعنا صوت تكات متتالية من جهة باب الدكان، عندما استدار إلينا لاحظ الدهشة على وجوهنا، قال إن هذا نوع من الأقفال استخدمه أهل المدينة في أزمنة قديمة، لكنه اندثر الآن ولم يعُد يستخدمه أحد.

لم أكن أتخيل أن الرجل ودكانه قديمان إلى هذا الحدّ.

كانت الشمس قد غربت بالفعل، مضيْنا نتسكع في الشارع الطويل، توقفنا عند مطعم شعبي وتناولنا قِطَعًا من الدجاج المقلي مشبوكة في عصي صغيرة مع الصوص وكرات الأرز، بدا أن كل أهل المدينة وزائريها على موعد للاحتفال بمناسبة ما وغلبت روح المرح على الأجواء.

في المساء ظهر رقم مالك على تليفوني، فتحت الخطّ، بدا أنه كان يستعدّ للنوم لكن موضوعًا أرَّقه فقرر أن يفرغ عندي شحنة أسئلة، ماذا تفعل الفتاة بائعة القلوب بما يتبقَّى لديها في نهاية كل يوم؟

هل تحتفظ بها في مبرِّد كي لا تفسد؟ هل تتركها مكوَّمة في ركن ما حيث تعيش؟ هل تتخلَّص منها لأنها ستحصل في اليوم التالي على كمية جديدة؟

من أين تأتي كل يوم بقلوب جديدة؟ أين أصحاب هذه القلوب؟ وهل الأمر أصلًا مشروع، أم أن هناك نوعًا من المساءلة القانونية عليها أن تواجهه؟

ولم تظهر في أي أفق أي إجابات ونصحته أن يتوقَّف عن التفكير وأن ينام في هدوء، كنت منهكة تمامًا فوضعت نفسي على الفراش وتخليت عن الوجود وبسرعة ذهبت بعيدًا.

باب البقاء

صار لدينا كلام لا ينتهي في لقاء واحد وينتظر لقاءً آخر ليكتمل، وصار من الأماكن ما أذهب ـ أو نذهب معًا ـ إليها بشكل متكرر، صارت هناك أشياء أستطيع أن أتوقع حدوثها فتحدث، وصار لي من الناس مَن أعرفهم ويعرفونني ومن الوجوه ما آلفه ويألفني، صار هناك كثير من القهوة وأشياء أخرى تنتظرنا لنتشاركها أو نصنعها معًا في تلك المدينة وبكل هذا.. بكل ما صار وما ينتظر أن يصير في النهارات أو في الليالي طاب البقاء فمددتُ إقامتي وأجّلت موعد المغادرة.

على مقعد في مواجهة لوحات هوجو عصافير صغيرة تنقر وتتقافز، يغلب على ألوانها الأصفر والأحمر، يطلقون تغاريد صغيرة متقطعة ومتناغمة، وفي أحيانٍ يكثرون وينتشرون في أفواج تذهب وتجيء وتمرح بأرجاء الحديقة، فوق الأشجار والمقاعد وفي الطرقات، وفي أحيانٍ أخرى لا تجد لهم أثرًا، في مرَّات سابقة أردت أن أصاحبهم فأحضرت لهم حبوبًا أعجبتهم، وفي يوم جلست أرسمهم، كان ذهني مشغولًا بالبحث عن حيلة تستميلهم حين قطع خط رؤيتي عبورٌ لكائن ينساب بإيقاع هادئ، امرأة شابَّة ترتدي فستانًا أحمر عليه وردات كبيرة مبهجة، ينهمر إلى اتساع وينتهي فوق ركبتيْها ويهفهفه الهواء، بالأعلى سترة مفتوحة قصيرة (بوليرو) تصل بالكاد إلى أسفل صدرها، لونها أحمر أيضًا لكن

بدرجات أفتح وعليه وردات أخرى أصغر قليلًا، على إحدى كتفيْها علقت حقيبة يد مرسومًا عليها أوراق نباتات بين أخضر وبرتقالي وأصفر، كان الورد كثيرًا ومتنوِّعًا في أنحائها وكان ماو منشغلًا تمامًا، يغطي عينيْه بكفِّ يده ويفرك جبهته كعادته عندما تستعصي عليه فكرة ما يحاول أن يخضعها ليكتبها، أومأت له تجاهها فنظر وتعلقت عيناه بها ثم قال بصوت خافت: يا للربيع المتحرِّك.

رأيتُ هوجو يرحِّب بها بشيء من حفاوة وتبادلا قبلتيْن سريعتيْن، مرَّت باللوحات تتأملها على مهل، تطيل الوقوف أمام بعضها وربما تمدّ يدها، تتلمس الإطار أو بعضًا من ملامح الوجه فإذا هو يميل بهدوء تجاهها ثم ينتابه تبسُّم، في هذا اليوم حملت دفتر الرسم الجديد معي بعد أن امتلأ القديم ولم يعد فيه ورقة فارغة، جلستُ متحفزًا كصبيّ يذهب إلى المدرسة في يومه الأول، تنساب انحناءات جسدها بليونة يحتفي بها القماش الطري للفستان ويكسبها مسحة من الغواية، انتقت لوحتيْن صغيرتيْن ذهبت بهما إلى هوجو وتكلمت معه، امتدَّ الحديث بينهما، لكن بعض العبوس بدأ يظهر على ملامحه ثم تصلَّب جسدها وانحنى جذعها كقطة تتحفز للهجوم، قام وأخذها إلى لوحة بعينها وتوقفا أمامها، يحرك يديْه كأنه يشرح لها شيئًا، رفع اللوحة في وجه الشمس وأخذ يشير إلى بعض أجزائها، بدت وكأنها تصده أو تواجه بخشونة محاولاته المتكررة لملاطفتها. واصلتُ التقاط كل التحولات ورسْمَها حتى صار لديَّ ما يشبه سلسلة من الرسوم تحكي قصة صغيرة، الآن تردّ بإيماءات أو بردود قصيرة، تمسك بحقيبتها لبرهة وتنصت إليه، ثم تعود وتعقد يديْها على صدرها وتحدق فيه عندما يتكلم،

رغم المسافة كان يمكن لمس الأجواء التي توترت، بدأ صوتها يعلو وتندفع برأسها للأمام في تحدٍّ قرب رأسه ما أوقف تقريبًا محاولاته ليكون لطيفًا، تغيرت ملامحه وأحنى رقبته وأرسل وجهه في اتجاه آخر يتلافى مواجهتها، ثم انتهت القصة الصغيرة بأن استدارت ومشت في عصبية في طريقها للخروج من الحديقة، عند انصرافها مرَّت بالقرب مني والتفتت ناحيتي فبدا وجهها متعبًا قليلًا، تحت عينيْها هالات داكنة وشفتاها باهتتيْن بلا طلاء ولا ملمع، وشعرت أنني أعرفها، هذه الملامح رأيتها من قبل، تصنعتُ انهماكًا في الرسم بينما بقيتُ أختلس متابعتها بطرف عينيَّ، في لحظة مرورها بي أحسست بعينيْها وقد تعلقتا بيديَّ وهي تجري فوق الورق، هل انتبهت إلى أني رسمت كل شيء؟

على مقعد قريب جلست أم وطفلتها،وضَعَتْ حقيبتها المنتفخة بجوارها، تكلَّمتْ مع الصغيرة وداعبتها وقبّلتها ثم أخرجت شطيرة أعطتها لها، بدا العالم مغمورًا بالتصالح والأمان في هذا اليوم، أفرغتُ قهوة لماو ولي ولموكا بالطبع، من بعيد لمحت البنت الصغيرة، أشارت إلى موكا وقالت لأمها شيئًا ثم جاءت على مهل ووقفت تتأملها، نزلت موكا بتثاقل إلى الأرض ومسّدت ظهرها في ساقَي الفتاة فبدأت تضحك، نزلت الفتاة إليها وأعطتها ما تبقى من شطيرتها لكن موكا تشمَّمتها ثم رفعت رأسها وانصرفت عنها، رفضت أن تأكل، وفي لحظات انقلب وجه الفتاة وانفجرت في بكاء حار بينما فزعت موكا وأخذت تنظر إليها بتعجب، كانت الأم تغطي

فمها بكفها الصغيرة لتخفي بهدوء نصف ابتسامة وقامت بسرعة إلى طفلتها تواسيها وتربت عليها، انتبه ماو إلى المشهد من وسط الكتابة وضحك، رفع رأسه ثم أشعل سيجارة، تأمل الطفلة لبرهة ثم أشار إليَّ ليذهب في جولة حرة في الحديقة، كان يريد أن يذهب وحده لكني قمت وأمسكت بالكرسي ثم دُرت به ومضينا نتحرك، مررت بالطيور ولاحظت فراشة ملونة تلهو في الهواء فتتبعتها حتى قادتنا إلى حقل صغير تتزاحم فيه مجموعة كثيفة من الزهور البرتقالية وفوقهم غيمة ملونة من الفراشات، توقفنا نتأمل المشهد حتى مرَّت بنا بعد قليل امرأة تمشي بهدوء ووقار، كانت نحيفة بشكل لافت وكان وجهها مألوفًا، هي من زبائن الحديقة وزائريها الدائمين وكثيرًا ما تلاقت أعيننا في مرَّات سابقة. وقفتْ في مواجهة ماو وبدا أنها فوجئت بما أصابه، تأملته للحظات ثم اقتربت وضمَّت كفيْها أمام صدرها وانحنت بتحية مهذبة، حيّيناها وهي نظرت إلى ساق ماو بقدر من الشفقة ثم اقتربت وعيناها مُعلقتان بها، تكلمت بلغتها وكان الكلام منغمًا ومُرتبًا وله إيقاع، بدا كأنها تتلو تعويذة أو صلاة أو شيئًا من هذا، لم نفهم كلمة واحدة مما قالت وأشار ماو إلى فمه وإلى رأسه يخبرها أنه لم يفهم شيئًا وهي ابتسمت وأشارت إلى ساقه المصابة وعادت تتكلم مرة أخرى، نَزَلت على الأرض وثنت إحدى ساقيْها تحتها وجلست ثم بحرص لامست الساق، أحاطت الجبيرة بكلتا يديْها كأنها تحتضنها ثم خفضت رأسها وأسبلت جفنيْها كأنما تحاول أن تتذكر شيئًا أو تسلط ذهنها على فكرة ما، تضامن المكان كله معها بالصمت حتى إن الفراشات توقفت عن الرفرفة واستطالت أعناق الزهور كأنها تترقب، استمرَّت على هذا

الوضع لمدة تجاوزت الدقيقتيْن بقليل ثم سحبت يديْها ووقفت وانحنت ثم حيتنا لتنصرف، أحنى ماو جذعه إلى الأمام قليلًا وهو جالس ليردَّ لها التحية، تكلمت بإنجليزية واضحة وطلبت أن يذهب في الغد ليرى الطبيب:

ـ ربما سوف تحتاج إلى إزالة الجبيرة.

لم تظهر ابتسامتها الجميلة إلا في نهاية هذه العبارة القصيرة.

شكرها ماو وهو ذاهل وهي استدارت وانصرفت بهدوء، استغرق الأمر دقائق قليلة كانت الدنيا فيها خفيفة بلا وزن كأن حلمًا يسرد نفسه على الموجودين، سوف نعرف فيما بعد أن اسمها سيرينا وأنها تمتلك في صدرها ينبوعًا لا ينفد من الحكمة ومن المحبة.

عُدنا ببطء وهدوء إلى مقعدنا السابق.

بدأت أرسم من جديد وبقيت حتى شعرت بتيبُّس قليل في جسدي فوضعت الأوراق والأقلام وقمت، تمطيت وقررت أن أتمشى في الطرقات قليلًا، رافقتني موكا، من بعيد أتى صوت خافت لموسيقى تشبه موسيقى السيرك ورأيت أطفالًا يهرولون إلى أحد الأركان، غيَّرت اتجاهي لأستطلع الأمر، أحدهم يقدم عرض أكروبات مفتوحًا لرواد الحديقة، تجمعوا حوله في حلقة كبيرة، قام بألعاب وشقلبات وبدا مضحكًا جدًّا عندما استعرض براعته في الاتزان فوق حبل مدَّه على الأرض، تناولتُ أوراقي وحاولت تسجيل حركته السريعة في خطوط بسيطة، كان التقاط الحركة صعبًا في البداية إلى أن تمكنت من اللحاق به، واصل هو حركاته وظل يوزِّع على الناس دفعات من المرح حتى تعالت أصواتهم بالضحك

وصيحات الإعجاب والتصفيق، توقف وبدأ يدور عليهم بقبعة مقلوبة لجمع ما يجودون به وأنا راجعت مجموعة الرسوم ووجدتها لطيفة وجديدة، في هذا الركن الصغير من العالم بدا أن الكل رابح.

التفتُّ جهة ماو، من بعيد رأيتُ فاتنة الربيع المتحرِّك تجاوره على المقعد، لم أكن أعرف أنه يعرفها، بدا أن مناقشة تدور بينهما، تمسك في يدها بأوراق تقرأ منها ثم تخفضها لتكلمه وهو يردُّ عليها، تدريجيًّا بدأ النقاش يكتسب شيئًا من حماس، تُحرِّك يديْها وتشير بأصابعها بعصبية، لبثتُ أتابعهم حتى توقفوا عن الكلام وبدا أن النقاش بينهما انتهى، عاد ماو إلى الكتابة وانشغل بالضرب على المفاتيح مع توقفات متقطعة ومتكررة، يتأمل الفراغ كأنه يشهد فكرة أو مشهدًا ينضج فيه بهدوء قبل أن يصوغه مكتوبًا على الورق، انتقلت هي إلى جوار هوجو من جديد ثم تذكرت الآن فقط أنها هي نفسها الموديل الذي رسمه هوجو في عشرات اللوحات، عازفة الفيولين، سأعرف فيما بعدُ أن اسمها جابي وأنها عضوة مهمة في أوركسترا المدينة، وسأعرف أن ماو يعرف عنها كل شيء.

ليس من عاداتي أنْ أكثر من المشتريات في السفر، ودائمًا ما كنت أفضِّل خفة الوزن وخفة الحركة لكن أرض هذه البلاد بدت كأنها تنشب خيوطًا حول زائريها وتربطهم بها، في غرفتي وضعت الراديو على الكومود الصغير الذي يجاور الفراش، شون رجل كريم حقًّا، أصرَّ على أن يصنع لي وصلة كهرباء تعوِّض القابس العتيق كبير الحجم، ماو سأله بمرحه المعتاد:

ـ هل تظن فعلًا أنه في حاجة لتشغيله؟

ـ سوف يُشغِّله، سوف يشغِّله كثيرًا، سيجد أن نقاء صوته بلا مثيل.

طيَّبت خاطره وشكرته قبل أن نخرج من عنده أنا وماو وسكارليت وموكا، رافقنا الرجل إلى الشارع وبقيت نظراته معلقة بالأشياء التي حملناها من عنده بينما كنا نبتعد، كأنه يودع رفقة قديمة.

في الممرِّ وجدت عاملة نظافة تسحب أدواتها وترحل فناديتها وأعطيتها الراديو لتنظفه وتزيل ما علق به من أتربة، فتحتْ مكنستها الكهربائية وبدأت عملها فخرجت منه سحابة مزعجة من الغبار، طلبت أن تأخذه إلى مكان مناسب، انتهيت من حمَّامي وخرجت لأجدها تطرق الباب، بدا الراديو بين يديْها جديدًا براقًا كأنما خرج للتو من مصنعه، صنعت المرأة شيئًا رائعًا وشكرتها بورقة نقدية أسعدتها، اشتريت الراديو بنصف قيمتها أصلًا لكن لا بأس بها كثمن لقدر معقول من السعادة.

لم أندهش عندما اكتشفت أن موَلّف الموجات معطوب؛ فلم أتصوَّر أن يعمل بكامل كفاءته بعد كل هذه السنين، فكَّرت أنه ربما يمكن إصلاحه بطريقة ما، بعد بحث كثير وشوشرات وصفير لم يلتقط إلا محطتيْن صوتهما نقيّ وواضح؛ واحدة منهما تبثّ بلغة لا أعرفها، ربما الروسية، صوت واحد يتكلم بلا انقطاع، تتناوب عليه الانفعالات وتتغير نبرة صوته بين فقرة وأخرى، لم أفهم كلمة واحدة إلا أن مشاعر شتى لا تتوقف عن التدفق، نبراته غزيرة التنوع وينفذ الصوت إلى صميم القلب،

في بعض الأحيان أبقى أستمع مأخوذًا حتى أوشك على البكاء من فرط التأثر، لكنني كنت أعود فأتمالك نفسي. المحطة الأخرى صفَّرت وشوشرت ثم التزمت الصمت، نسيته مضبوطًا على موجتها وتركته مفتوحًا فبقيَ صامتًا حتى اليوم التالي، بدأ وحده البثّ من جديد بأغنية فرنسية لم تكن غريبة على أذني، عندما انتبهت وأنصت عرفت أنها Je ne regrette rien لإديث بياف(*)، استمرَّ بعدها يذيع مجموعة أخرى من أغانيها حتى توقف تلقائيًّا بعد عدة ساعات، في اليوم التالي بدأ من جديد في التوقيت نفسه وبالأغنية نفسها، وانتهى أيضًا كاليوم السابق، بدا أن للمحطة جدولًا محددًا لا تتخلى عنه، تبدأ وتنتهي في مواعيد ثابتة، وتعودت أن أتركه مفتوحًا، يبدأ كما يشاء وينتهي كما يشاء، أحببت إيديث بياف وتعلقت بها منذ أيام دراستي.

موكا أصابها رعب حقيقي من الأصوات الغريبة التي اقتحمت بالإكراه عالمها الهادئ واختفت تحت الفراش، لم يظهرها إلا الجوع، وبعد قليل بدأت تطمئن إليه بعد أن تأكدت أنه لا يؤذي، تنظر إليه وتمرّ بجانبه أو من فوقه وتعتبره في جملة كل تلك الأشياء التي يقتنيها البشر ولا تعرف لها أهمية ولا ضرورة، لا بد أن عالم القطط بسيط تمامًا ومكوناته لا تتعدى أشياء معدودة، طعام ومداعبة ونوم، وطعام ولعب، تزاوج وإنتاج أبناء، ثم طعام ومداعبة ونوم من جديد وبلا نهاية.

(*) إيديث بياف (Edith Piaf): المغنية الفرنسية الأشهر، ١٩١٥-١٩٦٣، تعتبر أيقونة عالمية في الغناء والموسيقى.

في يوم ظهرت محطة أخبار، بدا أن المذيع يصف مشهدًا لقصف في وسط مدينة، رسالة صوتية ضلَّت طريقها عبر الزمن ولم تصل إلا الآن، تكرَّر هذا لمرَّات متعددة، انفجارات مروعة ومتتالية، تمرّ أصوات بشرية تتفتت وتنفصم وهي تستغيث، وتظهر أصوات لمبانٍ تفرقع وتنهار، يحكي المذيع عن شوارع بكاملها تنمحي وحضارة تنهزم، في الخلفية أصوات إسعاف ونجدة وصراخ لا ينتهي، بقيت أستمع حتى غلبني الهلع أنا وموكا وظننت أن رصاصًا حقيقيًّا سيخرج من فتحات السماعة فحوَّلت المؤشر وجلست أنتظر حتى ظهر أخيرًا صوت إديث بياف، كحياة زاهية تخرج من قلب الموت، عادت موكا إلى هدوئها على الإيقاع الثابت لأغنية Padam.. Padam(*)

هذا الهواء الذي يستحوذ عليَّ ليل نهار

هذه النغمة لم تولد اليوم

إنما جاءت مثلي من مكان بعيد

يحضرها مائة ألف موسيقيٍّ معًا

في يوم من الأيام ستقودني هذه النغمة إلى الجنون

مائة مرة أردت أن أقول لماذا

لكنه قاطعَني

يتحدث قبلي دائمًا

(*) أغنية شهيرة لإديث بياف، (حيث بادام.. بادام هو صوت دقات القلب).

وصوته يغطي صوتي

بادام.. بادام.. بادام..

مياووو.. مياوو.. مياووو

ثم قفزت إلى الباب قبل أن يأتي صوت طرقات سكارليت بأصابعها الرفيعة.

غالبًا ما تتحرك سكارليت فوق الأرض كجنيّة طيبة رسالتها في الحياة أن تلتقي أحدًا أو شيئًا ما يحتاج إلى خدماتها أو ملاطفاتها، ونادرًا ما كانت تفشل في العثور عليه، ربما تقضي نهارها تساعد زبائن الفندق التائهين في البحث عن مَداخله أو مَخارجه، ربما تصف لزبائن آخرين بالورقة والقلم وبدقة بالغة مكانًا يريدون الذهاب إليه، تتسلم وتسلم أشياء ضائعة أو منسية هنا أو هناك أو تساعد قادمًا جديدًا في ملء أوراق التسجيل، جدول يومي حافل بالأحداث المتكررة وإذا انتهى يومها بلا أحداث كثيرة فربما تسعى إلى شغل ما تبقى منه بطرق متنوعة، في الحديقة الصغيرة المقابلة للفندق ربما تجد غصنًا مكسورًا ينتظر أن تجبره، ورقة شجر على وشك الجفاف تلتقطها في حقيبتها لتتأملها فيما بعد، خنفساء صغيرة تُحييها على ذوقها في اختيار قميصها الأحمر المنقط بأسود، ترفعها إلى أعلى وتهمس لها بشيء وتبحث لها عن رفيق لا تتركها إلا معه، إذا وجدت عصفورًا فارق الحياة فإنها تشعر بحزن حقيقي وتتألم للفَقْد وتصلي من أجله، وأحيانًا ما كنت أفكر أنها بحجمها الصغير وهيئتها اللطيفة لا تنقصها إلا عصا سحرية رفيعة تضرب بها الهواء وتفور من مقدمتها حفنة من النجوم الصغيرة كجنيّات أفلام ديزني.

تعوَّدَتْ أن يصيبها خليط من الدهشة والبهجة معًا كلما التقت موكا، في كل مرة تتصرف وكأنه الظهور الأول للفصيلة القطية على وجه الأرض، الآن مباشرة بعد دخولها تناولت حقيبة ظهرها وفتحتها وأخرجت شيئًا أخذت تفكّ تغليفه بهدوء شديد، تعلقت عيني وعينا موكا بأصابعها في ترقب وصمت، فجأة رفعت يدها في الهواء بطبق صغير مُزين برسوم لقطط صغيرة ثم وضعته بسعادة أمام موكا على المنضدة.

ـ أجمل طبق قهوة لأجمل موكا.. تاداااا..

تناولت الطبق وصبَّت فيه بعض القهوة، اقتربت موكا وتشمَّمت كالمعتاد ثم اطمأنت له واعتمدته، قرقرت بسعادة بالغة عندما دغدغت سكارليت رقبتها ورأسها.

تقول الأسطورة إنه في التاريخ القديم كانت في السماء عشر شموس، وبسببهم كانت الحياة صعبة على الأرض، تجفّ المياه كثيرًا في مختلف الأنحاء ولا تتوقف الكوارث الطبيعية عن الحدوث، ثم جاء بطل معروف بقوته الجبارة ومهارته في الرماية ويدعى «هُوِيِي» وأسقط تسعًا منها بقوسه السحرية وترك واحدة فقط، وبسبب ذلك كافأه إمبراطور الخلود بحبتيْن من حبات الخلود؛ واحدة له والأخرى لزوجته، ذهب بهما إلى المنزل وأخفاهما هناك حتى يأتي يوم رأس السنة الجديدة. كشف الخادم سر الحبتيْن فأرادت زوجته وكان اسمها «تشانج آه» أن تمنعه من الحصول عليهما فابتلعتهما وحدها، كانت مضطرة لذلك، ثم بدأت تطفو في الهواء بفعل الحبوب ولم تعد قادرة على العودة

إلى الأرض من جديد، طارت وحلَّقت بعيدًا حتى وصلت إلى القمر واستقرَّت هناك. فوق الأرض يقف هُوبِي وينظر بعيدًا، بعيدًا جدًّا فيرى ظلَّها على القمر ويناديها بلا جدوى، وكلما أضاء القمر وأصبح بدرًا فإن اشتياق كلٍّ منهما إلى الآخر كان يتجدَّد ويتقد، ثم تعوَّد أن يشعل البخور ويضع الحلوى والفواكه المفضَّلة لها على الطاولة للتعبير عن شوقه الشديد إليها، وعندما عرف الناس القصة صاروا يتعاطفون معها ويقدمون لأجلها الكعك في منتصف كل شهر قمري وجعلوا لها عيدًا في منتصف الشهر الثامن من التقويم القمري، وهو اليوم الذي ولدت فيه سكارليت؛ ولذلك كان طبيعيًّا أن تحمل اسم تشانج آه، حتى إن أباها وأمها لم يتناقشا كثيرًا في الأمر، وكل مَن يعرفها في البلاد يستطيع أن يدرك سبب تسميتها بذلك.

وهي أحبَّت اسمها وأحبَّت القمر فغمرها بطاقة من عنده جعلته أمرًا عاديًّا أن تحبَّ كل شيء وأي شيء على وجه الأرض، فأحبَّت الضفادع البنية الصغيرة التي تقفز في حديقة منزلهم، وأحبّت الحمَام الرمادي الذي اعتاد زيارتهم في صباح كل يوم، وأحبّت حتى السحالي الملوَّنة التي تشبه قوس قزح صغيرًا يجري ويختفي وسط الحشائش، أحبّت أشياء كثيرة رغم أنها نشأت في ظل قصف لا يكاد يتوقف إلا ليبدأ من جديد، حرب يملأ دخانها الأفق بالخصومة والكراهية.

عندما خرجت من مدينتها الصغيرة وبدأت تتعامل مع زائرين وأجانب من بلاد أخرى وجدت أن تغيير اسمها سيوفر عليها مئات المرات من إعادة سرد الأسطورة عندما يسألها أحدهم عن معنى

الاسم، فاختارت اسم سكارليت وظل اسم تشانج آه موجودًا في دائرة المقربين منها فقط.

استمرَّت الحرب لسنوات أخرى تأكل فيما حولهم، وواصلت تسوية البنايات ومَعالم المدينة بالأرض وقرر أبوها أن يجمع كل ما تبقَّى لهم في سيارته الصغيرة، في الليل حزم كل شيء جيدًا استعدادًا للرحيل لكن قصفًا غير مُتوقّع فاجأهم فلم يتمكنوا من الرحيل، لم يتمكنوا حتى من العثور على ما تبقَّى من أجزاء جسده التي فرَّقها القصف أو أذابها، تلاشى الرجل كأنما انتقل كليًّا إلى كون آخر ثم مرَّ مزيد من السنوات الصعبة حتى أمكنها أن تغادر وأن تستكمل دراستها التي أحبَّتها، قالت إن كل شيء ـ تقريبًا ـ في حياتها ارتبط بالقمر بشكل ما، حتى التصوير الفوتوغرافي أحبَّته من أجل القمر، من أجل أن تصوِّره في مختلف هيئاته، ارتسمت على وجهها البهجة عندما وجدت كتابًا يتحدث عن القمر عند شون واشترته على الفور.

فكرتُ أن الفَقْد الكبير الذي تعرَّضتْ له لا بدَّ غرس في نفسها أشياءَ كثيرةً، الغريب أن أثرًا سلبيًّا واحدًا من جرَّاء كل هذا لم يمكني قط من أن ألمسه في تصرفاتها.

تركتْ أهلها في شمال البلاد وأتت إلى هذه المدينة لكي تدرس التصوير، ثلاثة أيام في الجامعة ويومين في الفندق، وفي العطلة الطويلة بين الفصول الدراسية تذهب إلى الفندق لأربعة أيام في الأسبوع، وكثيرًا ما كانت تكتشف فجأة أن عليها أن ترحل أو أن تفعل شيئًا ما تغادر المكان بسببه، لم تكن تعرف

كيف تختتم اللقاءات ويغلبها الخجل فتختلق أي مفاجأة لتقطعها قبل نهايتها الطبيعية.

فكرتُ أيضًا أن مزيدًا من البساطة والألفة ظلّ يغشاها بمرور الوقت وأن مزيدًا من طراوة ظلّ شجرة أخذ يمتدّ في جواري حيثما وُجِدَت، أخذتُ أوراقي وأقلامي ونزلنا معًا، تركنا ماو منهمكًا يكتب شيئًا على آلته الكاتبة العتيقة التي صار يسميها «الماكينة»، طول الطريق شغلتني أفكار عن الرسم وعن المعارض واستغرقت في تصورات كثيرة.

ذات يوم بدت بدت موكا مجهدة وفي غير حيويتها التي اعتدنا عليها، اتخذت ركنًا جلست فيه في سكون كمَن ينشد الراحة من عناء سفر طويل، بين حين وآخر كانت ترتعش بشدة، سكارليت أصابها الفزع فحملتها كما لو أنها طفلتها الصغيرة وأخذتها إلى عيادة بيطرية تعرفها، تأخرت هناك فذهبت إليها ودخلنا إلى البيطري معًا وبعد أن عاينها واستفسر منا عن طبائعها وما تعرضت له في الفترة الأخيرة أخبرنا أنها تعرضت إلى ما يشبه التسمم بسبب القهوة التي اعتادت أن تشربها معنا، لم أعرف من قبل أن الكافيين يمكنه أن يضر القطط إلى هذا الحد!

على الرغم من أنه تكلم بصراحة أمامها عن أضرار الكافيين وطلب منا أن نمنعها عنه تمامًا حتى تعتدل صحتها إلا أنها لم تتوقف عن المواء كلما فاحت في المكان رائحة القهوة، تأتي وتتمسح بي أو بسكارليت لتتسول بعضًا منها لكننا استجبنا لتعليمات البيطري وأبدلنا لها فقرة القهوة بصنف جديد من الطعام الجاف الذي أحبته،

رغم ذلك لم تتوقف أبدًا عن المواء والنظر إلينا في استعطاف وتوسل كانت تُجيده.

دعانا هوجو لزيارته في الجاليري الخاص به، أعطى كلًّا منا كارتًا به اسمه واسم الجاليري، قلبته فوجدت على جانبه الآخر خريطة مُبَسَّطة لموقعه، لم يكن بعيدًا عن الفندق، شكرناه على دعوته ووعدناه بزيارة قريبة.

عندما وصلنا كان على وشك الانتهاء من تجهيز القاعة لمعرض جديد لفنان زائر، علَّق اللوحات كلها بالفعل وتبقَّى له توجيه لمبات الإضاءة عليها بشكل مناسب، شعرنا ببعض الحرج وخشينا أن نعطله عن عمله، ولكنه كان مرحِّبًا وأكد لنا أنه اكتفى بما فعله اليوم، دعانا لافتتاح المعرض بعد يوميْن وشكرناه بالطبع.

المكان عبارة عن مبنى قديم يبدو أنه ورثه عن أسرته، وهو يستخدم الدور الأرضي كجاليري يعرض فيه أعماله أو يرتِّب فيه عروضًا لفنانين آخرين ينتقيهم بنفسه، ويبدو أن له زبائن يدفعون جيدًا. كانت الواجهة حديثة وعليها لافتة جيدة التصميم وموحية، عندما دخلنا دعانا لزيارة مرسمه في الطابق الثاني وفيه براح رائع للرسم، يملأ الحوائط بأعماله وهناك حائط كامل مخصَّص لموديل واحد، هي المرأة الشابَّة التي رأيناها معه في الحديقة وتظهر في عشرات اللوحات أو ربما أكثر وهي تعزف الفيولين، ولوحاتها جميلة وكلما اقتربت من اللوحة أو تأملتها

حتى من بعيد علا صوت الموسيقى التي تعزفها وتبدأ تستشعر رشاقة ورِقة حركة يدها وأصابعها، ينساب القوس فوق الأوتار بهدوء ويمتزج الشكل مع الصوت بطريقة تثير الإعجاب، قدَّمها هوجو لنا باسم جابي وقال إنها ربما تأتي بعد قليل، وقف بجوارنا يتكلم عن العلاقة التي وجدها بين المجموعات اللونية المختلفة وبين مقامات الموسيقى، تكلم عن نظرية جديدة شديدة الخصوصية يتبعها في أعماله، بدا منشرحًا وقال إنه مستعد لأن يستمرَّ يرسم ويضيف إلى هذه المجموعة مزيدًا من عشرات أو مئات اللوحات لجابي وهي تعزف، لم يمضِ وقت طويل حتى انضمت إلينا فعلًا.

بعد جولتنا جلسنا في الجاليري في الطابق الأرضي وتكلمنا كثيرًا في موضوعات شتى، لكن المحور الرئيس كان عن الفن والأدب في المدينة وفي العالم، كان لطيفًا وعبَّر عن إعجابه برسومي ثم دعاني لأن أقيم معرضًا لأعمالي في الجاليري، وضع موعدًا مبدئيًّا ثم أضاف أنه لا توجد قيود معينة بخصوص التوقيتات، وأنه يمكنني أن أكلمه عندما تكتمل لديَّ مجموعة كافية من اللوحات، لاحظ هوجو أن سكارليت توقفت طويلًا أمام واحدة من لوحاته الموسيقية فأهداها لها ثم أهداني لوحة أخرى وأهديته بدوري رسمًا سريعًا رسمته له بينما يتكلم، أخذتُ اللوحة إلى غرفتي وعلقتها هناك وعلقَت سكارليت لوحتها في شقتها.

من الخارج نظرنا إلى المبنى ورأينا طابقًا ثالثًا، توقعت سكارليت أنه يستخدمه للراحة المؤقتة أو يسكن فيه.

فيما بعد وفي حضور ماو أخذت سكارليت تحثني على أن أجد مكانًا أستخدمه كمرسم، ماو أيضًا أيَّدها وقال إنه ربما يمكننا أن نجد مكانًا لنا معًا، يقصد أن أستخدمه كمرسم وهو يستخدمه للكتابة، أضفت أنه يمكن لسكارليت أيضًا أن تكون معنا..

ـ لا بدَّ أن لديك مشاريعَ تحتاج لمساحة تشاهدين فيها أعمالكِ بأحجام كبيرة، وربما تستقبلين فيها زبائن أيضًا.

صمتنا، ثم أضاف ماو:

ـ لا تقلقي بشأن التدابير المالية.

ـ لا أعرف، ربما.

شجعتها أنا أيضًا على ذلك، وقلت إنها سوف تجد فيه مكانًا أفضل لطباعة صورها حتى بأحجام كبيرة وأعجبتها الفكرة.

بعد يومَين ذهبتُ أنا وماو وسكارليت لحضور الافتتاح، حضرت جابي أيضًا لتقدم عزفًا بعد مراسم الافتتاح، في هذا اليوم اكتشفنا أن هذا الوجه الهادئ اللطيف الذي تحرص جابي على الاحتفاظ به كان قابلًا للتفكك والانهيار في لحظات، كل الحضور وقفوا يترقبونها، يتناولون مشروبات ومأكولات خفيفة بعد الافتتاح والتجول في المعرض، وهي كانت تقف عند البار تعدّ نفسها وجهاز الصوت لبدء فقرتها الموسيقية عندما جاءتها ـ بالخطأ ـ رسالة على تليفونها من هوجو فيها شيء من الغزل ودعوة

إلى لقاء غرامي بينهما، لم يكن من الصعب أن تفهم أن الرسالة موجهة لامـرأة أخـرى، وأن خطأً في الإرسـال وجَّهها إليها، لم تستطع أن تنتظر حتى ينتهي المعرض وسحبته سحبًا إلى أعلى، ومن هناك سمع الجميع صوتها وصراخها، لم يمضِ وقت طويل حتى رآها الجميع تنزل وتغادر وهي في حال شديدة السوء، حاول هوجو تدارك الموقف والتغطية على ما حدث لكن الوقت كان متأخرًا جدّا على هذا.

حكى لنا ماو كل هذا ولا أدري كيف عرفه.

ثمَّ تناثر الهمس بين الحضور، وتناقل الجميع قصصًا صغيرة عن أحداث وفضائح أخرى صغيرة كان بطلها هوجو.

باب الانکشاف

(تحکیه سکارلیت)

في كل يوم صرت أخصِّص وقتًا لقراءة صفحات من كتاب التاريخ أو كتاب القمر اللذَيْن اشتريتهما من شون، كتاب التاريخ كان حافلًا بالمعلومات عن تاريخ المدينة منذ عصورها القديمة، حفل أيضًا بكثير من القصص والحكايات والتجارب، وكتاب القمر كان حافلًا بالمتعة الخالصة.

لم أتخيل أن يوجد كتاب بهذا الحجم يحكي عن القمر وكيف أثَّر في الناس أو أثروا فيه، كيف يمكن استخدام الطاقة الكبيرة التي يمنحها لتحقيق السلام النفسي الذي يبحث عنه الكثيرون ولا يجدونه.

قرب منتصف الليل انتبهتُ من نومي إلى صوت حالم يغني ويصاحبه عزف ناي رقيق وخافت، يكاد لا يظهر لكنه يرافق الصوت ويصعد به إلى سقف الرأس حيث قمة الانتشاء، الكلمات غير واضحة تمامًا لكن انتشرت في الهواء رائحة بحر لمدينة بعيدة ومعانٍ عن الغربة والبُعد والاشتياق، تصورتُ أن حلمًا لطيفًا على وشك أن يبدأ فسلمت نفسي للنوم من جديد لأتركه يأتي، بعد قليل اجتاحني الصوت وعزف الناي وحملاني ومضيا بعيدًا.

عادة ما تنتابني نوبات من التفكير العميق والمكثف كلما ظهر في حياتي من أهتمّ لشأنه أو أنجذب إليه، في حضوره فقط، أنشغل وأتشتت بأشياء كثيرة؛ ملابسي التي أريد أن أرسلها إلى المغسلة

منذ أسبوع، دمية الدب الظريف التي رأيتها في السوق التجارية بالأمس، التوابل التي تنقص مطبخي الصغير منذ ليلة رأس السنة عندما طبخت لآخر مرَّة، عبوة الصوص التي نفدت وأريد أن أشتري غيرها وأشياء أخرى كثيرة تشغلني وموضوعات وحكايات ثم أنساها بمجرد أن يمرَّ الوقت ويغادر الموضع الذي نكون فيه معًا، كأني أهرب من أَسْر عينيْه إلى أي اتجاه أجده متاحًا أو ممكنًا، وعندما نلتقي من جديد ينتابني هوس بالحديث معه، أتكلم في كل الموضوعات وألقي إليه بحكايات لا أكملها لكي أغويه بالسؤال، أحبُّ أن يستفسر عن تفصيلات لم أذكرها، أحبُّ أن يهتمَّ بما أقول أو أن يسأل عني، عن حياتي وأشيائي وأريده أن يعرف المزيد، أن يعرف كل شيء رغم أن ذلك يشعرني ببعض انكشاف فأخجل ويصعد الدم إلى رأسي، وأحبُّ حقًّا ذلك الانكشاف، له وحده، وأموت من الخجل، منه وحده.

تركت شعري مبللًا بعد أن انتهيت من حمَّامي، دفعت جانبًا منه وجعلته ينسدل فوق كتفي اليسرى وألقيت جانبًا آخر منه إلى الوراء، تقدمت نحو المرآة الطويلة وجلست على الأرض في وضع من أوضاع اليوجا التي أحبها ورفعت تليفوني وسجلت اللقطة، تذكرت الرسوم الصغيرة التي رسمها لي مالك في دفتره، استغرقت بعض الوقت في التأمل وانحنيت قليلًا إلى الخلف وإلى الأمام ثم جعلت ظهري منتصبًا وتحسست نهديَّ واحدًا بعد الآخر، هما متزنان بدقة ومتماثلان، ربما فقط بضع لمسات دقيقة لتكتسب إطلالتهما على العالم مزيدًا من الحيوية مع بروز لطيف، صوَّبت

العدسة وضبطت نفسي داخل إطار الصورة بحيث لا يخفى منهما شيء، حركت يديَّ بالتليفون إلى أحد الجانبيْن والتقطت من جديد ثم استرخيت وأنا أراجع ما التقطته، جيد لكن عدسة التليفون عادة ما تشوه اللقطة، تمط الأطراف وتضغط مركز الصورة فيظهر رأسي كبيرًا معوجًّا وجسمي أصغر بكثير، أحضرتُ الكاميرا وثبَّتها فوق الحامل الصغير، قلبت شاشتها الصغيرة إلى الأمام لأتابع ما تراه، أرسلت ذراعي جانبًا وأخفيت الريموت في كفي، حاولت أن أعيد ضبط جلستي كاللقطة التي أخذتها قبل قليل لكني اكتشفت وضعًا أفضل، ضغطت زر الريموت ثم دُرت بسرعة بحثًا عن زاوية أخرى مناسبة قبل أن يجفَّ شعري، من الجانب أرسلت صدري إلى الأمام وأملت رقبتي إلى الخلف قليلًا كأني أتمطى في تراخٍ، على شاشة الكاميرا ظهر جانب صدري باستدارته وتوجهه إلَى أعلى، بهدوء أمنحه لمسات أخرى لأضبط بروزه بالقدر الذي أحب، تخيلت كيف سيبدو بالأبيض والأسود ثم أضأت مصباح التليفون ووضعته على الأرض فأضاء أسفل النهد ومنحه بطولة مطلقة، أبعدت الضوء سنتيمترات أخرى ليصبح أثره مجرد خطّ على الحافة السفلى المحنية لأعلى ثم ضغطت الزر من جديد، دُرت درجات أخرى حتى شغل أكثر من ثلثي الصورة ثم ضغطت، تناولتُ الكاميرا وتصفحت الصور، فكرت أن أجرب زوايا أخرى لكني شعرت بشيء من البرد يتسرب إلى جسدي، رفعت حرارة مكيف الهواء وعدت بسرعة، تناولت الشورت الحريري الأبيض الذي تتناثر فوقه قلوب حمراء صغيرة وارتديته، جذبت قماشه الطري لأعلى من الجانبيْن وأعطيت ظهري للمرآة وأحنيت جسدي

وتأملت، ضبطت الكاميرا وصوَّبتها وعدت إلى الوضع السابق، نسيت الريموت، أخفيته في كفي وصوَّبت من جديد وضغطت ثم جذبت أكثر لأعلى فحمل مزيدًا من اللحم البض معه وصعد، أقرب إلى السماء، أعجبني الوضع وشعرت بالانتشاء، وضعت حمالة الصدر الخفيفة ثم أرخيتها لأسفل وضغطت، أرخيتها تمامًا ليظهر كل شيء متألقًا ومنتظمًا، أتصفح الصور من جديد، أحببت هيئتهما بكاملها وتكورهما ولكني لم أحب ذلك اللون الداكن للدائرتين الصغيرتين بنهديَّ، أتحسسهما وأنظر في شاشة الكاميرا، أكبِّر الصورة قليلًا وأتأملهما قبل أن أنقلها إلى اللابتوب المفتوح، أفتح الصورة على الفوتوشوب وأجرب درجات أخرى لألوان أكثر حيوية، أُكبِّر وأُصغِّر وأغير اللون، أزيل قدرًا من التجعدات لأجعل الملمس أنعم قليلًا، هكذا أفضل، انسياب الاستدارات المحكمة والبشرة المشدودة بطبيعتها لا يخذلانني أبدًا، في كل مرَّة أكتشف زوايا وملامح تثير الإعجاب، بغير قصد وبصوت مسموع تخرج «واو» بطيئة هادئة، ثم أجدها تمتدّ طويلًا عندما أستخرج لقطات مُقَطَّعة أخرى يتألق فيها خطّ مبهر في ليونته أو جزء من البشرة لافت في ملمسه.

سوف أندمج حتى أنسى كل شيء من حولي، سوف أنسى حتى مالك الذي سيمرّ بعد قليل لنعاين معًا مكانًا مقترحًا للمرسم الجديد، كنت ما زلت بالشورت الأبيض عندما دقّ الباب بطريقته المميزة، قفزت بداخل الجينز المرن والتقطت التيشرت الواسع وارتديته بسرعة، فتحت الباب ورحبت به، اختفت تمامًا من أمامي

فرشاة الشعر ولم أعثر لها على أثر، تصرفت بسرعة وأحضرت الفرشاة القديمة من أحد أدراج المطبخ، عدت إلى مالك لأجد وجهه مثبتًا على شاشة اللابتوب التي نسيتها مفتوحة، شعرت بالدم الساخن يندفع داخل رأسي وتحرَّكت الدنيا من حولي، دارت كثيرًا وعبثًا ثبتُّ قدميَّ بقوة كي لا أصطدم بالأرض الصلبة، لكن مالك التقطني من منتصف المسافة إليها.

باب المرسم

فجأة بدأَتْ في البكاء كطفلة أضاعتْ أمها في مدينة ملاهٍ كبيرة ولا تعرف كيف تتصرف. أطبقتُ شاشة اللابتوب التي كانت تحمل صورتها ثم التفتُّ إليها بهدوء وبلا أي نية لأي شيء، كنت فقط أريدها أن تهدأ وأن ينتهي كل هذا الحرج. لا أعرف مَن منَّا تحرَّك تجاه الآخر لكني وجدتها بين ذراعيَّ قبل أن تتهاوى إلى الأرض، والنهدان اللذان كانا قبل لحظات على الشاشة صارا الآن يضغطان صدري بشكل يصعب ـ حقًّا ـ احتماله، بقينا هكذا لبرهة ربتُّ فيها على كتفيْها وقلتُ كلامًا كثيرًا لا معنى له، عبارات بعضها ربما كليشيه قديم وبعضها ارتجلته في لحظتها حتى نجحت عبارة ما في تهدئتها، سوف أنسى تلك العبارة تمامًا فيما بعد وتفشل كل محاولاتي في تذكرها.

في شقتها الصغيرة امتلأت الحوائط بصور فوتوغرافية بلا حصر، أغلبها بالأبيض والأسود، وهي تظهر في كثير منها، أوضاعها متنوعة وقصات شعرها وهيئاتها لا تشبه إحداها الأخرى حتى قد يخطئ أي شخص في إدراكها أحيانًا، بدا أن لها هويات متعددة ربما بعدد الصور نفسها، لكن روحًا واحدة لا تغادر أيًّا منها ولا تتوارى أبدًا.

وصلنا بعد الموعد المحدد بقليل لمعاينة موقع المرسم الذي دلَّنا عليه مكتب العقارات، شقة تطل على قلب المدينة من فوق بناية قديمة، لم يستطع الطلاء الجديد أن يُخفي أثر الزمن من على

جدرانها، ظل حاضرًا كتجاعيد في وجه إنسان، كسجل باقٍ لحياته، السطح الذي كان فارغًا أعاد المُلاك إحياءه وبنوْا فوقه هذا الكشك الخشبي الكبير ومعه غرفتان إضافيتان، يحوطه جداران مبنيان من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك نوافذ كثيرة متجاورة من الخشب والزجاج تتخللها أعمدة سميكة تحمل السقف، تصنع بانوراما شديدة الاتساع تطلّ ناحية منها على التلال البعيدة ونهاية المدينة وترى جزءًا من المحيط؛ خليجًا صغيرًا تحوطه صخور كثيرة بدا أن زلزالًا قديمًا أخرجها من بطن الأرض وطرحها هناك فأعجبها الموقع ولم تغادره.

تنتشر في المكان أصص كثيرة لنباتات زينة تفوح منها رائحة تشبه رائحة حديقة المدينة، ويتسلق بعضها النوافذ الكثيرة في صخب أخضر رائع، بينما يكتفي بعضها الآخر بمتابعة الأحداث في صمت، وتتناثر زهور صغيرة صفراء وبرتقالية في أنحائه.

عاد ماو من عند الطبيب ماشيًا على قدميْن سليمتيْن بلا جبيرة، لم تُظهر صور الأشعة التي التقطت له بعد إزالتها أي شيء غير عادي في قدمه التي تعرضت للحادث، سكارليت كانت معه، اقترحت أن تأخذ له صورة أخيرة بالكرسي المتحرك للذكرى، وضع قدمه فوق الكرسي كأنه فريسة اصطادها وضحكت سكارليت كثيرًا وهي تلتقط الصورة ثم خرجا معًا، توقف عند مدخل المرسم ومسح المكان كله بنظرة شاملة، بدا كأنه يرسم في ذهنه خريطة للمساحة الواسعة المفتوحة، بعد برهة دخل واتجه ناحية أقرب نافذة مفتوحة، انبسطت ملامحه بينما يمسح المشهد الخارجي

كله، مشى في مساره نفسه عائدًا من حيث أتى ثم توقف عند نقطة يُرى منها قصر أبيض يقف شامخًا وسط البنايات المحيطة، وقف يتأمله وارتسمت على وجهه علامات رضا، استند إلى منضدة خشبية فوقها قهوة ومياه وأشياء أخرى، قال إن المشهد كله بديع من النافذة البانورامية، أشعل سيجارة وانتبه إلى الشمس التي تجتاح المكان.

ـ هذه الشمس ستكون بمثابة جنة لموكا، سوف تسترخي تحتها لأطول وقت ممكن من النهار.

موكا نظرت إليه عندما سمعت اسمها، وأصدرت شطرة صغيرة من مواء.

أشار ماو بإصبعه جهة القصر:

ـ انظر.. هذا القصر.. هناك.. لا بدَّ أن تاريخًا حافلًا وراء بنائه.

ـ لا بدَّ أن كنزًا مخفيًّا بداخله؛ ذهبًا ولآلئ وأحجارًا كريمة.

ردت سكارليت:

ـ أو ربما كنزًا من اللقطات الرائعة..

انتقلت إلى جواري وأكملت وهي تتأمل القصر:

ـ هذا القصر هو أول ما أحببته في هذه المدينة، تمنيت كثيرًا أن أدخله وأرى ما يحتويه، ولكنه مغلق ولا يستطيع أحد أن يجتاز بواباته الداخلية منذ زمن غير معروف، ربما منذ قرون، لا يوجد على قيد الحياة أحدٌ يعرف مَن دخله آخر مرَّة، بل إن كثيرًا من الناس

صاروا يتداولون حكايات متنوعة عن لعنات تصيب مَن يقترب منه، يحتوي كتاب التاريخ الذي اشتريته من شون على حكايات كثيرة عنه عبر الزمن..

موكا أطلقت مواءً صغيرًا كأنها تدلي برأيها في الحوار الدائر أمامها..

ـ وربما تكتشف موكا هناك كنزًا من علب التونة البائسة.

ضحكنا معًا..

والقصر كبير ولونه أبيض وله جمال آسِر، تحوط نوافذه وأبوابه إطارات سميكة وعلى رأس كل إطار زخرفة مورقة تلتفّ وتحتضن وجهًا ملائكيًّا، ويُرى من أي مكان على امتداد الشوارع الموصلة إليه، أضلاعه خمس وتعبر الشمس من فوقه كما تعبر فوق كل شبر في الأرض إلا أنه لا يسقط له ظلّ على الأرض، وفي الليل يلمع تحت ضوء القمر كأنه مصنوع من الفضة، وتحوطه حديقة صغيرة ولها سياج من حديد مزخرف، قالت سكارليت إن القوم هناك يسمونه قصر الهواء، ويسمون الميدان ميدان الهواء، وفيه تختفي جاذبية الأرض أو تكاد.

تفضي إليه خمسة شوارع، وإذا مشيت في أي منها متجهًا إليه فإن خطواتك تخفُّ كلما اقتربت، وفي قلب الميدان اقفِز في الهواء لتجد ألا شيءَ يجذبك إلى الأرض، ستظلّ معلقًا هناك، آخرون ستجدهم بجوارك وحواليْك أينما نظرت، يتمشوْن أو يتنزهون أو يخوضون في الهواء يعبثون ويلهون.

من موقعنا في نافذة المرسم تطلعنا إلى البرج الدائري الذي يتوِّجُه وله قبة تغطيه تحملها أعمدة مستديرة وتتسلقها إلى قمتها شرائط سميكة من الورد المنحوت، قلت لسكارليت: لا بد أن هذا البرج كان أعلى ما في المدينة في زمن ما، وهي أومأت بإيجاب بينما كانت تُضيق عينيْها وهي تتأمله بهدوء.

قال ماو أظن أن الناظر منه إلى المدينة كان يمكنه أن يرى على امتداد بصره كل شبر فيها، كل متحرك وكل ساكن، حتى الضواحي البعيدة وجزءًا من المحيط، ثم أضافت سكارليت إن الحكايات تتضارب حول زمن بنائه: مَن بناه، ولماذا بناه؟ كل هذا كان غير معروف على وجه التحديد، تركتهما يتحدثان وانصرفت إلى لوحاتي وعلب ألواني أرتبها وأصُفُّها في أماكن مناسبة.

لم أكن أعرف ـ حتى هذا اليوم ـ أن آخرين غيري سلب القصر لبَّهم إلى هذا الحد، بقيت تحكي تفصيلات عن تاريخ القصر حتى انتصف النهار، بدا كل هذا كدعوة مُلحّة لزيارته وتفحصه، لكن كان لدينا ما لا بدَّ من أن ننتهي منه أولًا.

كنا أجَّلنا أعمالًا كثيرة وقضينا معظم الأيام الماضية ونحن نعاين أماكن محتملة نتخذها مساحة عمل مشتركة؛ مرسمًا لي ومكتبًا لماو وربما استوديو لسكارليت أيضًا ولم يكن من السهل أن نجد مكانًا بمواصفات تلائم كل هذا، ثم بغير ترتيب ولا ترشيح عثرنا على هذا المكان الذي تجمع فيه كل ما نريد، مشينا كثيرًا عبر شوارع وضواحي المدينة حتى صارت أماكنها تنغرس في لحمنا شيئًا فشيئًا، غمرنا نسيمها الذي له رائحة مميزة تشبه رائحة زهر البرتقال، يسود

اعتقاد أن مصدرها زهور تنمو في التلال القريبة، تشمها من أي مكان في المدينة مع هبّات النسيم التي لا تتوقف، ثم تصير أقوى ما تكون في قلب ميدان القصر، تشمها حتى من نوافذ المرسم.

تولت سكارليت أمر النباتات وصارت تعتني بها وترويها، تنظف ما يسقط من أوراقها وتمدّ أفرعها لتتسلق النوافذ والجدران، جعلتها تبدو كإطار من زخارف عربية لطيفة ودافئة.

في اليوم التالي حمل ماو آلته الكاتبة وتوجهنا معًا إلى المرسم، اختار ركنًا منه وسحب إليه مكتبًا صغيرًا وزَّع عليه أوراقه وآلته الكاتبة وبضعة أشياء أخرى وجلس يحاول أن يبني ألفة مع المكان الجديد، اشتريتُ حاملًا خفيفًا للرسم وضعته في ركن آخر وأعددتُ لوحات فارغة ومكانًا لموكا وللقهوة ولكل ما يلزم لإدارة عجلة العمل هناك، أخذ ماو يتجوَّل في المكان ببطء ثم يعود إلى مكتبه ثم يقوم ويطيل النظر إلى القصر وينفث مزيدًا من الدُّخان في اتجاهه، تعلقت كتلة من الصمت في هواء المرسم ففتحت الموبايل وشغلت موسيقى باليه بحيرة البجع(*).

كان ماو شاردًا يتأمل المشهد من إحدى النوافذ فانضممت إليه..

ـ في الجنة ستكون هناك فِرَق موسيقى تعزف في الشوارع بلا توقف، وفِرَق باليه في الساحات العامة وفي الميادين.

ـ ربما يحدث هذا بالفعل في كونٍ موازٍ، أو في كوكب ليس بائسًا كهذا الذي نعيش فوقه.

(*) بحيرة البجع: باليه، إحدى الروائع الموسيقية للموسيقي الروسي تشايكوفسكي.

ـ كيف إذن يعيش العازفون والأوركسترا في المطلق؟ لا بدَّ من مكان ما يئويهم..

ـ لا أعرف، لكن لا بدَّ من مكان ما يئويهم، وورق يكتبون عليه النوتات، وآلات يعزفون عليها، وقهوة يشربونها وسجائر يدخنونها..

ـ بسيطة، عليّ القهوة وعليك الكون الموازي..

ساد ضحك بينما توجهت سكارليت إلى دورق القهوة لتصبّ قهوة للجميع وتجاهلت موكا التي لم تتوقف عن المواء فأخذتها بعيدًا وراحت تلاعبها كأنها تشاغل طفلًا صغيرًا.

دفع ماو بورقة في فم الآلة الكاتبة وبدأ يطرق عليها، ببطء وهدوء أولًا ثم تسارع الإيقاع، بعد قليل اندمج تمامًا وبدأت الماكينة تأكل الأوراق بلا رحمة، تبتلعها بيضاء ثم تدفعها من رأسها وهي حافلة بكتابة جديدة حتى بهت الحبر وبدا أنه على وشك النفاد، كلم ماو السيد شون مستفسرًا عن مكان يحصل منه على شريط حبر آخر وأخبره الرجل أنه غير متوافر الآن، توقف إنتاجه منذ زمن بعيد، أحسَّ ماو بأن الرجل خدعه وباعه ماكينة تالفة فبدأ ينفعل وعلا صوته قليلًا، جلس ينفث الدخان ويفكر ويتأمل في الرسومات ويداعب موكا ويفكر في حل للأزمة التي لم يتوقعها، بعد قليل تكلم شون وأخبره بأنه عثر له على زجاجة حبر قديمة يمكنها أن تشحن الشريط وتُعيده إلى العمل، كنا في منتصف اليوم فتطوعت سكارليت بالذهاب وعاد ماو إلى تأمل القصر من جديد.

سحب كثيرًا من الدخان من قلب سيجارته ونفثه بهدوء في الهواء.

ثم جاءت سكارليت وفي يدها قنينتان صغيرتان في علبة ملفوفة بورق بُنيّ، أعطتها لماو، عندما فتحتها فاحت منها رائحة لطيفة، بالداخل كانت طريقة تحضير الحبر مكتوبة باللغة المحلية على ورقة مطوية، ترجمتها سكارليت وانشغلت مع ماو بتنفيذ ما فيها، يخلط بنسبة ما مع ماء دافئ ويرجّ كثيرًا ويترك لدقائق ثم يغمر فيه شريط الحبر حتى يتشبع ثم ينظف من الخارج ويركب في مكانه في الآلة الكاتبة، عاد ماو إلى الكتابة وسط غيوم من الدخان الذي طغت عليه رائحة الحبر وظهر على وجهه ارتياح كبير.

قالت سكارليت إن الرجل أبدى اهتمامًا بمعرفة ما يكتبه ماو باستخدام الحبر، وأضافت أنه كان مشغولًا بفرز كمية كبيرة من القنينات، يفحصها ويرتبها في مجموعات متجاورة، انهمك ماو في الكتابة وانهمكت في الرسم.

كنت قد جهزت عددًا من اللوحات الكبيرة ووضعتها بجانبي في الركن المخصص لي، على الحائط بقيت مساحة كبيرة فارغة فانتقيت عددًا من الرسوم واللوحات الصغيرة المتميزة وعلقتها حولي، أنتظر أن يقفز منها أي نوع من الوحي أو أي أفكار لموضوعات يمكنها أن تثير شهيتي، علقت أيضًا لوحة هوجو هناك في ركن متميز، في كل يوم أجلس وأتأمل القماش الخالي من الرسم حتى صار لونه الأبيض يشكل إزعاجًا يوميًّا متكررًا، وبعد صمت طويل في انتظار بداية لا تأتي تومئ لي سكارليت من عند الباب بذقنها الصغير فأقوم ونخرج لنمارس تسكعًا لطيفًا بلا هدف، ربما ننتهي إلى الحديقة وربما إلى حافة المحيط، نجلس وتحكي لي فقرات من حياتها أو فقرات أخرى من كتاب التاريخ أو كتاب القمر.

في مرَّة أشرتُ إلى ماو أحييه قبل الخروج فالتقت أعيننا، أطلَّت من عينيْه الباسمتيْن مسحة من التواطؤ لم ألتقطها في لحظتها، فهمتها فقط في الخطوة التي تجاوزت فيها قدمايَ الباب فتوقفت للحظة أفكر، كدت أعود إليه لأوضح له أن شيئًا ما ربما وصله بالخطأ وأننا ـ أنا وسكارليت ـ نتصرف فقط كصديقيْن لا أكثر لكنني تراجعت، تقبلت تواطؤه برضًا وقلت لنفسي: وإن يكن! فما الأزمة؟ أكثر من هذا يحدث في العالم ولا يتأذَّى أحد.

بدأتِ الحياة تنتظم وتتخذ هيئة جديدة بمكونات جديدة؛ المدينة والمرسم والحديقة وماو وسكارليت وأشياء وأناس آخرين، وبدأتِ الأيام تكتسب ملامح أخرى أكثر لطفًا وألفة.

باب الأوبرا

(يكتبه ماو)

ماو/ أرواح لا تشيخ/ اسم مؤقت/ رواية

في مقعده المفضل في أوبرا المدينة يجلس هوجو كما يجلس راهب في قدس أقداسه، يتلو في هدوء صلواته ويتأمل، يترجم ما يسمعه إلى مساحات ملونة وخطوط راقصة أو ساكنة، وحي لا ينتهي ولا ينقطع، لا يفوته عرض تكون هي فيه، اسمها الذي صنعته على مدار السنين أحيانًا ما يظهر منفردًا يتصدر لوحات الدعاية، وكثيرًا ما تكون البطولة جماعية عندما يحتشد الأوركسترا بكامل أفراده، يشير إليها المايسترو فتقوم وتقف إلى يساره، فستانها الرقيق معلق على كتفيْها بحمالتيْن رفيعتيْن وينساب بسيطًا كأجنحة فراشة، تربط شعرها الطويل على هيئة ذيل حصان وفي الربطة قرنفلة بيضاء من قماش الفستان نفسه وبحجم يماثل قبضة يدها. تنفعل مع العزف وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا في انسياب مع اللحن المعزوف، تتحرك فوق وجهها تعبيرات تتنوع وتتتالى بحسب ما تقول الموسيقى، عندما تصل إلى نهاية ما تعزف تقابل تصفيق الجمهور بارتياح شديد ومحبة، تضع كفَّ يدها على صدرها وتنحني لهم، تنظر إلى الجميع وتودّ لو تردّ التحية لكل واحد منهم شخصيًّا، لكن المجال بالطبع لا يتسع فتعوضهم بابتسامة رائعة وتتلاقى القلوب.

يتابعها من وسطهم جميعًا، تتعلق عيناه بها ويتأمل قسمات وجهها والتفاتاتها ويتعلق قلبه بالنغمات التي تنساب من مس القوس للأوتار، خصلة من شعرها تهتز متأثرة بسحبة القوس، جفناها يسبلان وترتعش رموشها تأثرًا مع قطعة من اللحن مشحونة بالشجن، جذعها ينثني في رقة تماثل الانسياب الرقيق للموسيقى التي يعزفونها أو ينتصب في قسوة وعزم متأثرًا بدق الطبول، يلاحظ بدقة واحدة من أصابعها وهي تكتم وترًا ويسكن فوقه للحظات يمتصّ فيها رحيقه الحزين أو تتحرك أصابع أخرى بخفة من وتر إلى آخر، ربما يسجل بخطوط سريعة في ورقة صغيرة لقطة أو نظرة أو نغمة وربما ينتظر حتى يلتقيا في مرسمه ويطلب منها أن تُعيد عزف النغمة التي مسَّت قلبه، تحلق فرشاته فوق قماش الرسم كالفراشة، يخلدها بأسلوبه الفريد في لوحة أو أكثر، التقنية التي طورها منذ التقى جابي تجعل الموسيقى تصدح من لوحاته، يلتقط تعبيرات وجهها ووضعيات أصابعها التي تنتقل من وتر إلى وتر، بطريقة ما يهبهم حياة ورقة تماثلان أصابعها ذاتها، عيناها كيف تنظران، ورموشها إلى أين تتجه، وكيف ترتعش؟ يسجل كل هذا في عشرات الاسكتشات واللوحات، لا ينتهي شغفه أبدًا بهذه المجموعة من اللوحات التي تتزايد ولا يملّ من جلوسها أمامه ليرسمها، كلما أمكنهم تدبير وقت مناسب يلتقيان فيه، ربما كل يوم لو استطاعا.

وفي كل يوم تراودها نفس الأسئلة عن العلاقة التي بينهما: هل يحبها لروحها وجمالها ومزايا تمتلكها، أم يحبها فقط لكي يستغلها ويُجلسها أمامه لساعات كلما أراد؟

هل يحبها أصلًا؟

ماذا عن الأخريات؟

هل يعرف الحبُّ حقًّا طريقه إلى قلب يتعلق في كل يوم بوجه فاتنة أو بفخذَيْ ساقطة؟

عندما تيأس من الوصول إلى إجابات تذهب إليه وتحاصره بأسئلتها وهو يضحك منها، يعلو صوته بالضحك ولا يجيب، تزداد النار بداخلها اشتعالًا، عادة ما ينتهي اللقاء بأن يرضيها بكلمات حلوة لكنها لا تُجيب عن الأسئلة ولا ترويها، يفترقان لأيام ثم يعودان من جديد ويتكرر كل شيء كالمرَّة السابقة، في نهاية اللقاء تزداد مجموعته لوحة جديدة فريدة أو أكثر بينما تظلّ كومة الأسئلة التي تمتلكها على حالها.

عذاب لا ينتهي، بيده أن ينهيه لكنه لا يريد.

هل يستمتع بتجريحي وإهانة كرامتي إلى هذا الحد؟ ألأني أحبه؟

تكتم غلَّها كما تعودت دائمًا؛ حتى لا تعكر صفو الأمسية الطيبة.

لم تكن اللصقة الطبية التي وضعتها فوق جبينها كافية للفت انتباهه للإصابة التي لحقت بها، لولا لطف الأقدار لربما كانت الإصابة أكبر وأخطر، رآها بلا شك ولكنه لم يُبدِ أي تأثر ولم يسأل، العلبة الثمينة المغلفة بورق لامع مطبوع بمئات القلوب الحمراء التي وجدتها في المرسم من أسبوع، لا بدَّ أنها هدية من إحدى عاهراته، أيهن يا تُرى؟

ألم تكن اللصقة ظاهرة بما يكفي؟ لا بدَّ أنه رآها، صحيح أنها بلون قريب من لون البشرة لكن مجرد وجودها ألم يسبِّبْ له أي انزعاج؟

بداخل العلبة بارفان غالي الثمن وبطاقة عليها قلوب أخرى كثيرة وكلمات حبٍّ لا تكتبها إلا ساقطة، بجوارها وضعت أثر شفتيْها؛ طلاء شفاه رخيص يبيِّن وضاعة صاحبته، أعرف هذا اللون، هذه الدرجة بالتحديد، لكني لا أذكر على أي شفاه رأيته.

ثم يتلعثم عندما أسأله ويكذب، قال إنها من أخته، أخته التي تبعد عنا بثلاثة آلاف كيلومتر!

لا أعرف كيف تحمَّلت كل هذا وتجاوزت عنه، أنا أكرهه.

وفي مرَّة أخرى يريد أن يقنعني بأن ما رأيته كان وهمًا، وأنهما مستغرقان في قُبلة أطول من سنة سوداء في المرسم ويريد أن يقنعني بأني أتوَهَّم!

ويداه تعتصران مؤخرتها كأني لا أقدِّم له كل ما يريد وفي أي وقت يريد! حتى هذا كان وهمًا! تعتصران بلا توقف!

والآن هذا! حمالة صدر!

هل خرجت إلى الشارع بدونها إذن، أم تعمدت الساقطة أن تتركها لكي تغيظني؟

هي لا بدَّ من أن تعلم أني سأمرّ به هنا، لا بدَّ أنها تقصد أن ترسل إليَّ عبرها رسالة حقيرة!

ولم يهتم بالجرح في رأسي، ولم يقل كلمة مواساة واحدة!

لا بدَّ أنني أخطأت عندما تركتهما معًا ومشيت، ربما كان يجب عليَّ أن أقتلهما معًا جزاء الخيانة، على الأقل كنت تعرفت على وجهها القبيح وهي معه.

لكني أحبه!

بعد انتهاء الحفل الذي عُزِفَت فيه سيمفونيات لفيفالدي(*) انتظرها وخرجا معًا، سوف يتمشيان قليلًا وربما يتناولان عشاءً خفيفًا متأخرًا في مرَّة من المرَّات النادرة التي يصحبها فيها إلى عشاء، لم تستطع أن تخفي سعادتها حتى إنها بادرت وثرثرت قليلًا مع ماري صديقتها الوحيدة وزميلتها في الأوركسترا، أخبرتها عن خطتها لهذه الليلة وعن تغير تستشعره في معاملة هوجو لها، ماري أبدت سعادة كبيرة وتمنّت لها أشياء كثيرة طيبة، انتزعت منها وعدًا بأن تخبرها بكل ما سيحدث بينهما، احمرت جابي تمامًا وهي تتخيل ما سيحدث، ما تتمنى أن يحدث، كلمتها ماري بود وتمنت لها أشياءَ طيبة كثيرة، ماري تمكنت من أن تُبقي ابتسامتها عريضة لأطول مدى ممكن حتى كاد وجهها أن يتجمد على هذا الوضع، في لحظة انقلبت شفتاها الرفيعتان إلى أسفل في وضع أقرب إلى البكاء فاستدارت بسرعة واستأذنت في الذهاب إلى التواليت، خرجت من هناك إلى منزلها مباشرة ولم تعُد إلى جابي التي كان

(*) فيفالدي (Antonio Lucio Vivaldi): مُلحن باروكي وعازف كمان إيطالي شهير، قام بكتابة حوالي أربعمائة كونشرتو، من بينها الفصول الأربعة؛ وهي أشهر أعماله على الإطلاق.

عليها أن تنصرف فورًا، نسيت حتى أن تندهش، اتصلت ماري بها لاحقًا لتعتذر وذكرت أسبابًا صدقتها جابي ولم تشك في أي شيء، تفكر جابي.. ماري طيبة وصديقة رائعة حقًّا لكنها كثيرًا ما تتصرف كعاهرة حقيقية لا تخجل ولا تتوقف عن اصطياد الزبائن، تتكلم عن الجنس كمدمنة وإذا اندمجت في الحديث عنه لا تتوقف، تخبرها عن وضعها المفضل وعن براعتها في التعامل في السرير، كيف تتلقى الرجل ومتى تجعله يبطئ من أدائه أو يسرع، كيف يحاور جسدها جسده ليصنعا معًا مشهدًا رائعًا، دويتو من عزف ممتدّ تقسمه إلى مراحل وحركات كتقسيم الكونشرتو، كيف تستخدم صوتها وتأوهاتها في دفعه إلى مزيد من النشاط فلا يهدأ، كيف تسكن له وتمتصه باحتراف حتى النهاية، مع كل هذا كانت من العازفات البارعات في أوركسترا المدينة وكان غيابها ـ إذا غابت ـ لا يُعوض.

كانت لدى جابي منذ سنيّ مراهقتها مشكلة في استخدام الحدس الأنثوي، لم يكن ينشط عادة في الوقت المناسب وكثيرًا ما كانت تفشل في قراءة الوجوه، ولأكثر من مرَّة تَسبّب هذا في وقوعها في مشكلات عاطفية.

لم تتأخر جابي على هوجو بعد الحفل، انتظرها كما اتفقا عند الباب الكبير بجوار تمثال عازفة الهارب، غمرتها السعادة عندما رأته من بعيد فأسرعت إليه، وضعت يدها في يده ومرَّا معًا تحت كوبري المشاة ذي الطراز العتيق، يتسع الشارع ثم ينقسم إلى فرعيْن كحرف الـ Y، إلى اليمين حديقة سورها منخفض تطلّ من فوقه النباتات على المارَّة وإلى اليسار منتزه صغير مغلق على نصف

ملعب كرة سلة، يختفي ضجيج الشارع تدريجيًّا بينما يتردد في الأرجاء صوت موسيقى، يبدأ خافتًا ثم يعلو شيئًا فشيئًا، بدا اللحن القصير المتكرر مألوفًا، جابي أدركت اللحن المميز الذي لا يغادر دمها قبل هوجو؛ شيئًا من افتتاحية بحيرة البجع، فجأة برقت حركة خاطفة في ملعب كرة السلة عبر الشارع، لم يلتفتا لكن الحركة عادت من جديد بشكل لا يمكن تجاهله، أشارت جهة اليسار حيث يتحرك فتًى يحمل قوسًا وسهمًا صغيريْن ويبدو منتشيًا، يجوب المكان وكأنه يبحث عن فريسة يقتنصها، يصوِّب بقوسه وسهمه هنا وهناك، ينتهي حوار قصير بين الأوبوا وبين الهارب ثم تبرز مجموعة الآلات النحاسية، تعلو ثم تعود في هدوء تعزف الثيمة الأساسية التي لا تخطئها أذن للحن المعروف، لا بدَّ أن الشاب الذي ظهر هو سيجفريد الأمير، تظهر أوديت، مشهد اللقاء الأول بينهما، يفاجأ بوجودها وهي تجد نفسها كأن نظراته الثاقبة تحاصرها، ترتبك لوسامته بينما يأسره وجودها، وقفت إلى جوار هوجو بلا حركة واحدة، التصقت به وقد احتواهما المشهد كليًّا، توقف نبضهما كأنما يشهدان معًا حدثًا كونيًّا مهولًا، تحرك شيء فوق كوبري المشاة، هذا هو الساحر الشرير يغضب ويخفق بجناحيْه الأسوديْن الكبيريْن، علا صوت الموسيقى وخفتت الأصوات الأخرى، من الشارع المتفرع أمامها ظهر صف البجعات، المشهد الرائع الذي لا ينساه أحد، متشابكات الأيدي يدخلن إلى بؤرة المشهد على أطراف الأصابع، ثم دخل صف آخر من الجهة المقابلة، توارى سيجفريد وأوديت والساحر، توقفت بعض السيارات، مرَّ عامل توصيل بدراجة نارية، فزِع وانطلق من فوره، اختفى من المشهد في لحظة،

مرَّ آخر فهدَّأ من سرعته ثم توقف إلى جوارهما، تسمَّر الجميع أمام المخلوقات البديعة حتى انتهى الفصل الثاني، تلاه الثالث ثم الرابع، دخلت خلفية الشارع ومكوناته من بيوت وشرفات وحديقة وكوبري المشاة كعناصر أصيلة من ديكور المشهد، بقيا مأخوذيْن تمامًا حتى بعد انتهاء العرض، انصرف كل المؤدّين، تسربوا في جماعات صغيرة، كل جماعة في اتجاه ثم تلاشوْا، بدأت الأضواء تخفت حتى لم تبقَ إلا إضاءة الشارع العادية، همست له:

ـ لم أرَ شيئًا امتلأ بكل هذه المتعة من قبل، بل إن شيئًا تغيَّر في طعم الأماكن نفسها.

ـ أنا أيضًا لم أرَ شيئًا كهذا من قبل!

ـ كانت أمي تتمنى لي أن أصير باليرينا في يوم من الأيام.

ـ لا.. حقًّا لم تخبريني من قبل، هل ترقصين الباليه؟

ضحكت.

ـ لا لا.. الموسيقى احتلت قلبي كله..

ـ كله؟

استدركت بقدر من النعومة وقدر مماثل من الإغواء..

ـ قلبي الصغير، في صدري قلبان؛ الكبير لك كله والصغير للموسيقى.

ـ لكن ستفعلين يومًا ما، سترقصين.

ـ لا أعرف، ربما، هل تريدني أن أرقص؟

أحب الباليه حقًّا، لكن لا شيء مثل الموسيقى..

ـ بل لا شيء مثلك، لا تعرفين كيف كانت حياتي قبل أن أعرفك.. لوحتي الرائعة أنتِ..

احمرّت خجلًا لإطرائه ثم تذكرت شيئًا وهو لمح النظرة في عينيْها وأدرك أن اللحظة التالية ستشهد هجومًا كاسحًا منها فبادر بتناول يدها برقة ورفعها لأعلى، صمت لبرهة وهو يمنحها نظرة هيام طويلة ثم وضع قُبلة على ظهر يدها، عندما لمست أنفه أصابعها نفذ إليه تيار خافت يحمل رائحتها، أحس بتجاوبها اللين مع انثناء جذعها فلاحقها بقُبلات أخرى كثيرة متفرقة، بعد برهة أخرى ونظرات محسوبة بدقة، في توقيت مناسب ضمَّها وصنعا معًا قُبلة طويلة، غيبتها تمامًا كما يحدث في الأفلام والروايات الرومانسية.

أخذ يدها وواصلا المشي حتى وصلا إلى الرصيف الذي يطلّ على الخليج، كان الجو لطيفًا بعد أن أفرغت السماء بعض محتواها، انعكاسات الأضواء الملونة فوق الماء جعلت المشهد رائعًا، بقيا هناك حتى بدأت تشعر بالبرد فعادا إلى شقته الصغيرة أعلى الجاليري ليستكملا الليلة هناك.

في حجرة النوم كرسي خشبي صغير أمام مرآة، ظهرُه ينثني في ليونة أنثوية وينتهي إلى تاج منحوت من قطعة واحدة، تحفة فنية متميزة وجميلة، تركت إحداهن فوقه حمالة صدر مزخرفة بشريط رقيق من الدانتيل، وكانت أول ما وقع عليه بصر جابي عندما دخلت في تلك الليلة التي انتظرتها طويلًا وأعدت نفسها لها، كان مقاسها صغيرًا بشكل ملحوظ، لكن طريقة وضعها جعلها تتصدر المشهد

الرومانسي وتوشك أن تفسده، بدا كما لو أنها تحمل رسالة إعلانية تقول «كنت هنا». أمسكتها جابي بقرف بين إصبعين كما لو تمسك بقطعة من القذر ورفعتها أمام وجهه الذي احمر تمامًا ولم يعلق. كَوَّرتها وألقت بها في سلة المهملات البعيدة، بصعوبة كتمت غيظها وحاولت أن تُبقي الليلة جميلة وهادئة.

في الفراش تألمت لمرور كفه فوق خصرها لكنها جاهدت لتكتم الألم، وهو من جانبه كان سخيًّا ولم يقصر حتى صار لديها أحداث صغيرة يمكن أن تحكيها لماري.

في الصباح وبعد حمّام لطيف وقبل أن تُجفف شعرها الذي تركته منسدلًا نزلت إلى المرسم وانتقت إطارًا خشبيًّا فارغًا وعادت به، تناولت لباسها التحتي وثبتته مشدودًا على أضلاع الإطار، بهدوء وإتقان فنان يجهز لوحة هامة تحمل بصمته أو سماته شديدة الخصوصية، فكرت أيضًا أن تترك حمالة صدرها لتظهر الفارق في الحجم ثم تراجعت، انتابها قدر من الفخر، علقت اللوحة على الحائط الفارغ في مواجهة الباب، في المنتصف تمامًا حتى لا تخطئه عين ثم ذهبت لتعد إفطارًا لكليهما.

عندما وقعت عينا هوجو على اللوحة المميزة اتسعت عيناه واصطبغت نظرته إليها بقدر من الاستنكار..

انتفض جسدها قبل أن توضح، تناولت قطعة خبز من الطبق وقالت بهدوء:

ـ أحاول فقط أن أحسم النزاع على مناطق النفوذ..

سكتت لبرهة وهي تشق الخبز بسكين صغير ومضَ فوقه انعكاس ضوء الشمس ثم واصلت عبارتها:

ـ قبل أن يتطور إلى صراع أكثر عنفًا.

في تلك اللحظة لم يخطر ببالها قط أن الساقطة التي تغويه سوف تكرر وقاحتها مرة أخرى، حتى بعد أن تتسمر أمام لوحة جابي وتتأملها مليًّا.

سوف تراها جابي ذات صباح تتهادى خارجة من باب الجاليري ولن يكون صعبًا أن تتعرف عليها رغم المسافة البعيدة نسبيًّا بينهما، بكل طاقة الغلِّ التي تراكمت لديها عبر سنيّ عمرها تسبها في سرها.

باب النقاء

سيرينا التي عرفناها عن قرب منذ أزمة ماو الصحية أصبح المرسم من وجهات خروجها المتكررة، صارت تزورنا كل يوم أو يوميْن تقريبًا، وهي امرأة لطيفة حقًّا وخفيفة الظل، تميل إلى التصوف في أدائها الحياتي العام وتحبّ الناس وتحبّ أن تصادقهم، في وجودها يمتدّ ظلها الطيب ليشمل المكان كله، يصطبغ الجميع بنقائها، بدا أنها تُكِنُّ لماو إعجابًا خاصًّا، فيما سبق ظهورها لم نعرف الكثير عن حياته الخاصة ولم يسبق له أن كلمنا عن زوجة أو عن صديقة أو عن أبناء، وبالطبع لم يكن لائقًا أن ندسَّ أنوفنا في شئونه الخاصة فظلت هناك مساحة فارغة ومعتمة دائمًا، بالتدريج بدأت هي تشغل هذه المساحة بتواجدها المتكرر، كان الاتساق ملحوظًا بينهما من حيث الهيئة وسمْت الوقار المشترك بينهما والسن المتقاربة.

اقتربت سكارليت وهمست.. إنهما يبدوان متشابهين وكأنهما ينتميان إلى الطراز نفسه، الموديل نفسه.. أو شيء كهذا، أضحكني الوصف وأيدتها وقلت: حتى فارق السن بينهما يبدو معقولًا ويبدو أن القدر نجح أخيرًا في ترتيب موعد مناسب في وقت مناسب بين طرفين مناسبين، عندما سكتت ولم تعلق نظرت إليها وبدا أن فكرة ما خطفتها وأرسلتها بعيدًا، كانت تصبُّ القهوة وتنظر إليهما ويبدو أن ما تفكر فيه كان لطيفًا لأن ابتسامة ارتسمت على شفتيْها وكان في عينيْها بريق انسجام وبقيت تصبُّ القهوة حتى امتلأ الكوب

وفاض على المنضدة، ناديت عليها أنبهها ولكنها بقيت منفصلة عن الواقع، رفعت صوتي بالنداء ففزعتْ وفوجئتْ وراحت تخبط ما بيدها، صارت هناك فوضى صغيرة ثم غمرنا ضحك وانتبه إلينا ماو وسيرينا، حصلنا على فضيحة صغيرة واحمر وجهها وأذناها من الخجل.

في الواقع لم يكن وصف سكارليت لهما دقيقًا تمامًا، صحيح أن هناك الكثير من الأشياء المشتركة بينهما لكن ماو بالقياس إليها ربما يبدو متهورًا أو مندفعًا، أما هي فلديها قدر كبير من الهدوء والصفاء النفسي يجعلها تتوقف كثيرًا قبل أن تقتحمك بعبارة تلخص رؤيتها العميقة لأمر أو مسألة ما، المسألة نفسها قد لا يتوقف عندها أحد أو يراها بهذا النفاذ، تتكلم بهدوء وثقة وتشدّ إليها كل الآذان وكل الوجوه، ماو أيضًا لديه القدرة نفسها على لفت الانتباه وجعل المحيطين به ينصتون إليه لكن بطريقة أخرى أكثر صخبًا وعشوائية ولا تخلو من مرح، الطرازان مختلفان إذًا لكن ما بينهما هو انسجام، لا تشابه، وهذا هو ما يطرب حقًّا، تمامًا كالموسيقى، قلت هذا الكلام لسكارليت فرفعت واحدًا من حاجبيها، واحدًا فقط ورمقتني بطرف عينها ثم أومأت بالموافقة.

سيرينا تعيش في ضاحية على أحد أطراف المدينة، لديها دجاجاتها وبعض العنزات وحديقة صغيرة خصبة تزرع فيها أصنافًا من خضراوات وفواكه وأعشاب موصى بها في الطب التقليدي في البلاد، وتصنع من بعضها أنواعًا من المربات ولها ماركة يعرفها زبائنها المخصوصون الذين يداومون على الشراء منها، أولادها

وأحفادها يقيمون في مدينة أخرى قريبة ويأتون لزيارتها كلما تيسَّر لديهم وقت، يؤانسونها ويساعدونها في هواياتها هناك، لديها أيضًا كثير من الورود والصبارات والشجيرات الصغيرة تصفها بعناية في أصص ملونة.

عندما زُرناها طبخت لنا أصنافًا رائعة بنكهة ومزاج خاصيْن، كانت كل المكونات من محيط بيتها الصغير ومن صنع يديْها، وقفنا جميعًا معها نساعدها في تفصيلات صغيرة وقرَّر ماو أن ينفرد وحده بصنع سلاطة خضراء، كان اليوم من أروع ما مرَّ بي في السنين الأخيرة كلها.

سيرينا كانت أيضًا تحبّ المشي وتحبّ الحديث في شئون الحياة كافة، قالت سكارليت إنها تشبه نباتًا عطريًّا يحلي طعم اليوم وتجعلك تذوب في رقتها، وقال ماو إن لديها ذلك النوع من الجاذبية الذي يأسرك ويشعرك بأنك بلا شك سوف تفتقدها إذا غادرتك، نظرت إليه وأنا أبتسم وأحاول أن أتصنع غمزة خفيفة لا تلفت انتباه أحد غيره، كنت فقط أحاول أن أرد له ابتسامته المتواطئة التي تلقيتها منه قبل أيام وهو فهم هذا وضحك.

كنا في نهاية الأسبوع وانقضى النهار ولم يتكلم أحد في أمر العودة إلى المدينة، لم ننتظر أن تدعونا للبقاء ثم نتعلل بالمشاغل والمواعيد لنسرع بالعودة، بل شعرنا جميعًا أننا في بيتنا وأن بقاءنا هو العادي، لم نفكر أيضًا في برنامج معين لقضاء الوقت، ولكنه مرَّ هادئًا وممتعًا ولطيفًا ووجدنا دائمًا ما نتكلم فيه وما نناقشه وما نفعله.

في وسط حديث متشعِّب لا أذكر بدايته قالت إنه يجب على الإنسان أن يخوض فيما يجب أن يخوض فيه من معارك في سبيل الحصول على ما يريد لا أن يكتفي بالانتظار حتى يأتيه ما يريد، هذه المعارك هي نفسها ما يعطي الحياة معناها وطعمها ونكهتها، ينبغي أن تتحرك لتتجاوز ما لا ترغب في وجوده، فلن ينزاح من تلقاء نفسه.

أتوقف طويلًا أمام كثير من عباراتها وأتأمل في حالي، وفي كثير من الأحيان كانت تلتقي عينايَ بعينيْ سكارليت ثم تعلقان هناك، كأنها تلتقط نظراتي، تمسك بها ولا تفلتها.

في أثناء حديثي مع سكارليت عن هذا البيت الرائق الجميل وعن الحياة بعيدًا عن المدينة وما فيها انتبهنا إلى قيام سيرينا لتجمع بعضًا من أعشاب حديقتها الصغيرة، قالت إنها ستجهز لنا مشروبًا مسائيًّا سوف نحبه كثيرًا، فتركتني سكارليت وقامت لتساعدها، وقفتا معًا تجهزان ما يلزم، سألت سيرينا عن هذه النقلة وعن ترك المدينة.. كيف تمكنت من الاستغناء عن حياتها السابقة في المدينة لتنتقل إلى هنا، بهدوء واصلت سيرينا ترتيب الفناجين والبرّاد الخزفي الأبيض اللذيْن كانا معًا يشبهان أسرة واحدة، صبت الماء الساخن ثم تكلمت، قالت إنها تعلمت من وقت مبكر أن ممارسة الحياة أمر يشبه أي عمل نقوم به، كل الأعمال تحتاج إلى التدرُّب عليها مرَّة أو مرَّات قبل أن يتمكن الواحد منا من ممارستها، وهي استغرقت وقتًا تدربت فيه على الاستغناء عن كل ما تجده في المدينة واستبداله بما يمكن أن تجده هنا في هذا البيت نصف المنعزل.

حملت الصينية والتفتت جهتنا، وضعتها على المنضدة الصغيرة المنخفضة ثم واصلت حديثها وهي توضح أن كل شيء في الحياة يحتاج إلى التدرُّب للوصول إلى إتقانه، ليس فقط الرياضة أو الرسم أو الغناء وكذا، بل إن تكوين صداقة تعيش طويلًا أمر يحتاج إلى تدرُّب، الانخراط في علاقة مريحة وملائمة يحتاج إلى تدرُّب، تدرُّب على أن تكون صديقًا جيدًا أو تدرُّب على أن تكون شريكًا رائعًا، كل شيء يحتاج إلى تدرُّب..

صبّت بعضًا من شاي الأعشاب في فنجان وقدمته إلى ماو ثم نظرت إلى سكارليت التي كانت تنصت تمامًا بنظرة رائقة، ثم صبّت فنجانًا آخر وقدمته إليَّ، نظرَت في الفراغ البعيد بهدوء وخفضت صوتها قليلًا وهي تقول: المدينة مرعبة.. العالم كله بدون حب مرعب.

صمتت قليلًا ثم واصلت بالهدوء نفسه:

ـ يجب ألَّا يمتنع أحد عن تقديم الحبِّ إلى شخص آخر، طالما يقدر على ذلك.

غمرنا صمت طويل ولا بدَّ أننا جميعًا كنا نفكر في الكلام الذي سمعناه وننتظر المزيد، ربما موكا وحدها التي بقيت تتصرف كالابن الضال ولم تهتم.

موكا أمضت وقتها بين النوم وبين مطاردة كائنات الحديقة المتنوعة؛ فراشات أو خنافس، حاولت ـ فيما يبدو ـ عقد صداقة مع الدجاجات لكن لم يكن هذا سهلًا من أول لقاء، اكتفت بتعلم القفز مثل الضفادع الصغيرة قبل أن يرعبها نقيقها فتبتعد، سيكون

عليها أن تنتظر عندما نعود لمرَّات أخرى لتجد فُرصًا أوفر مع الدجاجات، ثم ستجد مزيدًا من الفُرص لتعميق هذه الصداقة عندما تأتي وحدها مع ماو، سوف تحبها سيرينا بعد ذلك وتزوِّجها لقطّ آخر وسيم مرَّ بحديقتها كعابر سبيل ووجد عندها راحته النفسية، سوف يذهب هو الآخر ويعود مجددًا ليستقرَّ عندها بشكل نهائي؛ كما سيفعل ماو بالضبط.

كنت مستغرقًا في الرسم عندما سحب بهدوء كرسيًّا وضعه بجواري قرب النافذة حيث يواجه الهواء المنعش الذي لا يكفّ عن التدفق عبرها، لمحته بطرف عيني يضبط وضعه ويثبته جيدًا ثم يختفي لدقائق ويعود ومعه كوبان من القهوة، وضع أحدهما أمامي واحتفظ بالثاني لنفسه، في الركن المقابل كانت موكا تروح وتجيء تريد أن تحصل على نصيبها منها، وعندما يئست ذهبت بعيدًا واختفت.

شعرت به يتأمل الرسم في هدوء، ويرشف من قهوته دون أن يصدر عنه أي صوت.

تكلَّم بعد قليل:

ـ كانت رائعة تلك العصافير التي أطلقتها في حجرتي في ذلك اليوم بعد الحادث..

استغرقت ثوانيَ لكي أجمِّع ما يقول ثم نظرت إليه وقد ابتهجت لإطرائه، لطالما كنت أشعر بالسعادة كلما شهدت أثر ما أرسم في الآخرين مهما كان بسيطًا.

تذكرت ما حدث منذ أيام عند هوجو في الجاليري، كنا وحدنا في المرسم في غير وجود سيرينا وسكارليت وأردت أن أسأله كيف عرف بتفاصيل العراك الذي نشب بين هوجو وبين جابي.. بعد تردد سألته ولم يرد على الفور وبدا متفاجئًا..

ـ دعني أخبرك شيئًا.. حصريًّا.. لا يعلم به أحد.. أنا نفسي لا أفهم بشكل كامل كيف يحدث..

توقف لمسافة أطول قليلًا ثم اكتسب صوته شيئًا من غموض وهدوء كأنه يتأهب لإلقاء مفاجأة مدوية..

ـ تتلامس الكتابة مع الواقع.. بطريقة ما تؤثر فيه..

حوَّلت وجهي إليه أتتبع كلماته المتقطعة، يأخذ وقتًا ويفكر كثيرًا قبل أن ينطق، أكمل من جديد بعد توقف آخر:

ـ أنا لا أعرف على وجه التحديد كيف يحدث هذا لكنه يحدث.. منذ بدأت أستخدم هذه الآلة الكاتبة.. التي اشتريناها من شون، بالتحديد مع استخدام نوع الحبر الذي يزودني به.

بدأت أنتبه إليه أكثر.. سألته:

ـ لهذا السب تداوم على استخدام هذا الحبر؟ فقط من عند شون؟

ـ نعم، هذا صحيح.

كانت عبوة حبر فارغة قريبة منه بجوار الآلة الكاتبة فوضع إصبعه عليها وحركها ببطء في حركة دائرية كأنه يريد أن يؤكد على ما يقول.

رفع عينيه تجاهي وواصل بهدوء:

ـ ما أكتبه.. أقصد بعض ما أكتبه.. بشكل ما يتحول إلى واقع.. يحدث على الأرض..

بدا مترددًا أو غير واثق تمامًا مما يقول..

شعرت بالزمن يكتسب قدرًا كبيرًا من اللزوجة وأنا أحاول أن أتصور ما الذي يقصد بالتحديد، أو كيف يحدث، وماذا يعني..

عادت يدي تعمل بشكل آلي في تظليل ما أرسم بينما يتكلم هو، بقي كل تركيزي في محاولة استيعاب ما قال للتو ولوهلة بدا لي ما أرسمه هشًّا بلا ملامح محددة ونسيت خطوتي التالية لاستكماله..

بدت أيضًا رشفة القهوة أبطأ كثيرًا من زمنها المعتاد.

ـ غريب هذا!

ـ ليس تمامًا.. في تاريخ الأدب هناك حالات مشابهة.. غير مؤكدة لكنها موجودة.

رفع كوب القهوة الصغير قبل أن يتمَّ عبارته وحدَّق فيه لثوانٍ قبل أن يديره إلى جهته البعيدة عنه ليرتشف ما تبقى منه.

توقفتُ وثبتُّ سن القلم فوق الورق.. بلا هدف..

ـ حقًّا؟

رفع عينيْه إليَّ وفيهما قدر من الدهشة..

ـ نعم ولا.. حالات مشابهة لكن.. ربما مع تنويعات عديدة.. ربما في ظروف مختلفة..

في منتصف رده عدت إلى الرسم لأبدو وكأنني أسمع حديثًا عاديًّا عن أحداث يومية يمارسها البشر جميعًا، كنت أخشى أن أصدِّر إليه إحساسًا سلبيًّا وأنا في الحقيقة لم أستوعب بعد تمامًا.

ـ لكنك في وقت ما كنت تفكر في هذا.. تريده..

ـ بشكل ما نعم.

صمتُ من جديد هذه المرة لمسافة أطول ثم واصلت:

ـ ربما أن هذا ايضًا له تأثير.. أعني إرادتك..

قال بهدوء:

ـ ربما الأمران معًا.

أكمل من جديد:

ـ لكن لا عجب.. هذا يشبه ما فعلته أنت نفسك.

تجمدتْ أصابعي قليلًا وهي تقبض على قلمي الرصاص..

فكرت أن الأمر ربما يكون أبسط مما تصورت فعلًا، لكنني بقيت متشككًا.. هو أيضًا بدا على وجه لا يقين وتردد.

ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، من جهة مدخل المرسم جاء صوت خشخشة مفاتيح، وانتفضت موكا واقفة ودفعت رأسها وأذنيْها لأعلى.

قلت:

ـ لا بدَّ أن سكارليت سوف تظهر بعد قليل.

عُدت إليه وواصلت كلامي:

ـ لا بدَّ أن الأمر لا يخلو من متعة أيضًا..

ضيَّق عينيْه قليلًا، واعتصر جانبيْ جبهته بإصبعيْه..

ـ ليس تمامًا، يتوقف الأمر على طبيعة ما تكتب؛ تراجيدي.. رومانسي.. كوميدي.. عنف.. ربما تكلمنا عن هذا من قبل..

كانت سكارليت قد دخلت بالفعل، طافت بالمكان بخفة وبعثرت بهجتها مع المعتاد من التحية والترحيب، التقطتْ من على الأرض موكا وقبّلتها ودغدغتها ورفعتها في الهواء، لم تدرك أنها ربما غيرت مسار حوار شديد الغرابة إلا بعد دقائق.

حيرني ماو كثيرًا وأربكني وظللت لا أستطيع أن أصنفه هو وما يكتب إن كانا حقيقة أم خيالًا، ظللت متحيرًا لفترة حتى تذكرت أنني أيضا كذلك، واقع منذ أمد بعيد في فجوة يسيل فيها الخيال ويختلط بالواقع ولا أستطيع التفريق بينهما، لفتني فيه قدرته على بناء شخصيات مركبة تحمل أوجهًا كثيرة، لا بدَّ أن هذا أمر جيد في الأدب وله تقديره، في الرسم تُختزل أبعاد الحياة ولا يكون لديك إلا بُعدان فقط تصنع فيهما ما تشاء.

بمرور الوقت بدأت أعرف سكارليت أكثر وأفهم بعضًا من خياراتها وتصرفاتها، في الأوقات التي يغلب عليها فيها الانفتاح والرغبة في التواصل كانت تتبع واحدة من طريقتيْن تتميز بهما؛ الأولى هي أن تظلَّ تسأل عن تفصيلات كثيرة تخصّ أمورًا فنية

دقيقة، غالبًا ما كان الموضوع المفضَّل لهذا هو الرسم وتقنياته، يستتبع هذا أن تكون الردود مطولة وربما تستغرق أكثر من مرحلة من الشرح والتوضيح، وفي أثناء هذا تعمل هي على تجهيز سؤال آخر تلاحقني به فور أن أنتهي، بشكل تلقائي يفضي هذا إلى مزيد من الأسئلة ومزيد من الإجابات ثم تتفرع الأسئلة لتصبح أكثر خصوصية، تتناول تفضيلاتي الخاصة أو من جانبي تمسّ تفضيلاتها هي أو آراءها، وهي عادة ما تقوم بجمع جانب من شعرها الأسود الطويل في خصلة سميكة تحصرها بين إصبعيْها السبابة والوسطى وتسحبها حتى نهايتها، وتظل تكرر هذا الأمر بشكل لا شعوري كثيرًا بينما تنهمك في توضيح مقاصدها، الطريقة الثانية هي أن تحكي عن صديقة لها تواجه عادةً مواقف ما مع صديقها المقرَّب، ثم تستطلع رأيي بشأن ما يجب أن يكون أو كيف عليها أن تتصرف، وهكذا، وبالطبع كنت أفهم أن صديقتها هذه ليست إلا صديقة متوهمة لكني حرصت على ألا أُبدي لها علمي بهذا حتى لا أغلق في وجهها مجالًا متسعًا للتحدث والتشارك، وبدأت أحبّ دائمًا كيف تعرض أفكارها وتصوراتها بتلقائية وبلا تصنع، في كل هذا كانت حقيقية تمامًا ولطيفة جدًّا، ربما أكثر مما ينبغي.

مع اندماجها في الحديث وتكاثف مزيد من الألفة في الأجواء قد تتخلَّى دون أن تنتبه عن بعض الحذر الأنثوي، ربما تمدّ يدها لتضبط حمالة صدرها وتشدها لأعلى قليلًا، ربما لا تنتبه وهي تنحني إلى انكشاف مساحة رائعة من صدرها، تواصل الحركة والحديث ببراءة كأن شيئًا لافتًا لا يحدث.

وكثيرًا ما كنت أفاجأ برائحتها المميزة؛ مزيج بارفانها مختلطًا بعبقها الأنثوي الخاص بها كبصمة لا تتكرر، تملأ أنفي بينما أنا غارق في الرسم، تأتيني من خلفي أو من جهة يميني حيث تخلو المساحة من أي شيء، وصار وجودها يُحدث نوعًا من الألفة والهدوء في النفس، وفي تواجدنا معًا واختلاطنا سواء في المرسم أو في أي مكان آخر كان ماو يجيد الالتفات إلى أشياء أخرى لكي يخرج نفسه من أي تداخل بيننا، يُخلي لنا المجال ببراعة، كنت أستشعر تواطأه وأستلطفه، ولكني كنت أتساءل عما إذا كان هذا من شأنه أن يصدّر إليها أي حرج أم لا.

لأيام كثيرة تعوّدنا أن نشرب جميعًا قهوة أمريكية أو اسبريسو ثم اكتشفتُ متجرًا تركيًّا في السوق فاشتريت منه قهوة مُحوَّجة وصنعتُ لنا جميعًا، أحببتِ القهوة بالطريقة التركية هي وماو وموكا ـ قبل أن تتوقف عن شربها ـ وتحولنا جميعًا إليها، وهي تعلمت الطريقة مني وأتقنت عملها، بعد ذلك صارت رائحة القهوة تغلب قليلًا على رائحتها عندما تأتي بها وتناولني إياها، لكني بقيت قادرًا على التقاط عبقها، تقدم القهوة ثم تقف وتنتظر لترى أول ردِّ فعل على وجهي بعد أول رشفة، هذا الطقس الأنثوي الذي يبدو أن النساء جميعًا توارثنه منذ أيام حواء، ظلت تحرص عليه رغم أنها سبق وأن أيقنت من إجادتها لضبطها ولم يكن يلزمها تأكيدات أخرى، مع ذلك كان يسعدها أن ترى الانسجام وهو يرتسم على وجهي بشكل تلقائي بعد تلك الرشفة الافتتاحية.

في يوم جاءت إلى المرسم ومعها صديقة، كانت بمثل لطفها تقريبًا، وكانت حتى تشبهها قليلًا، لديهما معًا الشعر الأسود

الطويل نفسه المنساب في بساطة وبلا تكلف، وفي الطول نفسه أيضًا، أمضت معنا بعض الوقت وشاركتنا عشاءً خفيفًا وبعض المشروبات، في التعارف الأول بيننا قالت بود وبشكل عرضي وهي ترد على الترحيب: سمعت عنك الكثير.

وأنا نظرت إلى سكارليت وابتسمت ولم أعلق، فلابد أنها سمعت عني منها ويبدو أنها سمعت أشياء جيدة، أما سكارليت فارتبكت قليلًا وحاولت تجاوز الأمر بسحبها من يدها لتريها مشهد المدينة من النافذة البانورامية.

بعد وقت قليل أدركتُ كيف أن هناك اختلافات كثيرة بينهما، كانت صديقتها تحب النكات والقفشات المرحة ولا تتوقف عن إلقائها في وسط الكلام العادي والعابر، وكان هذا يثير الضحك والصخب وخاصة من جانب ماو الذي اندمج معها بل تخطاها في أحيان غير قليلة، وهي تقبلت اندماجه هذا بالنظر إلى فارق السن الكبير بينهما كما أن نكات وتلميحات ماو كانت ظريفة ومضحكة حقًّا، سكارليت كان وجهها يحمر من الخجل الذي كان يصيبها وتُقدِم أحيانًا على منح صديقتها ضربة خفيفة على ذراعها أو على كتفها القريبة منها، لكنها كانت تواصل الضحك ولا تهتم، انشغلت قليلًا بما قالت إنها سمعته عني وحاولت أن أخمِّن ما هو.

في هذه الليلة رأيت نفسي في حلم طويل وغريب، بدأ المشهد الأول ونحن نسير معًا في الحديقة ثم انسابت سكارليت بهدوء إلى المقعد الذي تستعمره العصافير، تحركوا إلى الأجناب وأخلوْا

لها مكانًا، جلستْ وهم حولها كما لو أنهم يعرفونها وتعرفهم، اقترب بعضهم وهي مدَّت ذراعها وبسطت كفَّها، ارتقاه واحد منهم ثم آخر واستسلما لها، تصورتُ أنها ربما تكلمهم أو يكلمونها، أو أنها بعد برهة سوف تصفر مثلهم وهم يستمعون لها كما يستمعون لبعضهم البعض، ظلوا يلعبون حولها ومعها، ربما يجعلونها أميرة أو ملكة عليهم، وظلت هي تبعثر ضحكات صغيرة في الأنحاء وراحت تعبث بالكاميرا وإعداداتها ثم وضعتها إلى جانبها وبدأت تتطلع إلى المكان والأشجار.

غير بعيد منها جلستُ أرسم عصافيرَ ملونة وأطلقها في الهواء، وهي تنظر في إعجاب وتتأملها، مدَّت كفها نحوها بإصبعيْن مثنيتيْن كأنما تدعوها للوقوف عليهما، رفرفت العصافير وارتفع اثنان منهما في الهواء ثم حطّ أحدهما فوق أصابعها وذهب الآخر يتسلق كتفها البعيدة، رفعت كتفها تتأملها بإعجاب وسرور ثم أخذتها وقامت، دارت في مكانها وحلق فستانها القصير في الهواء معها ثم تحلقت العصافير حولها وتحركوا جميعًا في الطرقة كغيمة من رفرفات، بقيتُ في مكاني وتابعتها وهي تبعد في اتجاه السياج الحديدي، قرب نهايته وصلت عند جماعة الحمام فراحت تنسحب إلى الأجناب واحدًا وراء الآخر، تخلي لها الطرقة وهي تمضي فتتخطاها، أكملت انسيابها الهادئ كما لو أن الطرقة ممتدة بلا سياج يقطعها، ثم في زمن لا يتجاوز رفتيْ جفن مشبعتيْن أو ثلاثًا خطت إلى الفراغ، اخترقت السياج وتلاشت هناك، أصاب الحمام كله سكون مفاجئ وانتفضت العصافير التي رافقتها كأن هواءً معاكسًا صدمها، ثم بعد وقت قليل رفرفت حمامة وارتقت

الهواء، اتخذت مسارها إلى أعلى ثم اختفت وراء الأوراق الخضراء الكثيفة، تجمدتُ لبرهة في مكاني أحاول أن أفهم ما يجري وكتمت أنفاسي وأنا أترقب، شيئًا فشيئًا بدأت تغيب رائحة الأشجار والخضرة من أنفي وبدأت أشعر أن الهواء ينسحب من المكان وأن الوقت يرتخي ويتمدد.

قمت واتخذت مسارها نفسه حتى وصلت عند جماعة الحمام، صارت تخلي لي الطرقة كلما تقدمت خطوة فخطوة، تمامًا كما فعلت معها قبل قليل، اقتربتُ من السياج وواصلت المسير واجتزته كأني أجتاز فراغًا صلبًا، صدمتني دفقة مفاجئة من هواء رطب وارتج لها جسدي، وجدت نفسي أخوض في غيمة ظلت تتكاثف حتى احتوتني ولم أعد أرى سواها، واصلت تحريك قدمي أحاكي أني أسير بينما تتغير الأرض تحتهما وتزداد طراوة، بدأت الغيمة تتلاشى إلى أن وجدت أنني أمشي على رمل رطب على شاطئ بحر، تغوص قدماي وأبذل جهدًا كي أسحبهما إلى أعلى وإلى الأمام، يحاذيني حاجز ممتدّ من أحجار رمادية تسقط عليها حمرة الشمس الغاربة فتشع بالدفء، يمتد ظلي طويلًا ويتحرك صعودًا وهبوطًا فوق الأحجار ويقطع شعاعات الشمس، مشيت في خط معتدل خطوة بعد أخرى أشعر بوزني يخفّ شيئًا فشيئًا، ثم صرت أطفو في محيطٍ من هواء سائل، أتجه إلى الأمام، أمام بلا تفاصيل ولا نهاية، مضيتُ وأوغلت في الماء الكثيف ثم مسحتُ بعينيَّ كل ما حولي، لم يكن في الوجود سواي، وجه الماء كله صفحة خالية لا يشوبها شيء، والموج في الخليج ساكن،

لهيب الشمس يشعل السماء قبل أن تذهب إلى انطفائها الليلي، غير بعيد في قلب الماء ظهر قارب خشبي خفيف ومن فوقه هيئة مشوشة كأنها ضربات فرشاة فوق لوحة زيتية، كانت هي، تُحرك المجدافيْن برخاوة من لا يتعجل الوصول إلى شيء، بقيت أتابعها حتى توقفت وأرخت ذراعيْها على جانبي القارب، مشيتُ حتى وصلتُ إلى مرساة تبرز لها سيقان خشبية مبللة وتخرج منها خيوط رفيعة تشدّ إليها قوارب أخرى صغيرة وملونة بالأحمر والأصفر والأزرق الفاتح، كان المشهد غارقًا في الغيم وخشيت المجهول ولكني وضعت نفسي في أحد القوارب واتجهت نحوها، بذلت جهدًا كي أوفّق إيقاع حركتي مع الانسياب البطيء للزمن الآخذ في التفكك في محيط المكان.

اقترب القاربان حتى كادا أن يتلامسا، نظرت في الماء الذي بين القاربيْن ورأيت صورتي منعكسة على سطحه وصورتها تقترب، حدقت قليلًا فصارت تضحك ضحكًا هادئًا متصلًا بلا توقف.

وجدتُ نفسي أتكلم وأنساب ببساطة وهدوء:

ـ هذه المدينة غريبة، لا يكاد ينتهي نهار من نهاراتي فيها إلا وجدت ما يخلب لُبي، كورقة شجر يتلاعب بها هواء قادم من جبل قريب يحمل رائحة تشبه فاكهة هبطت من سماء لم يفسدها أحد، وصرت أمتلك ما أتذكره وما أنساه وصارت لي مقتنيات وصار لي مَن يزورني ومَن ينتظرني، ثم إن أشياء كثيرة خطفت قلبي، كأن تاريخًا جديدًا يكتب لأيامي.

ـ كنت تبحث عن تاريخ آخر؟

ـ في الحقيقة لا أعرف، يبدو أن طبيعة هذه البلاد؛ أنها لا تقبل بتاريخ بائس، فتهبك من عندها تاريخًا آخرَ حافلًا.

ظلَّ القاربان يتهاديان فوق سطح الماء ثم اقترب منا قارب ثالث وفوقه أشخاص آخرون ملامحهم غير واضحة، بعد برهة بدأت تنساب من جهتهم موسيقى بلحن مرِح يشبه موسيقى فرقة من جوّالة الشوارع، بدأنا نميز صوت أكورديون وساكس يصاحبهما إيقاع خافت ربما من شنشنة مثلث نحاسي، اقتربوا أكثر واستطعنا أن نميز فرقة الدُّمى التي أحضرتها سكارليت من عند شون، ربما يعزفون معًا لأول مرة منذ سنوات طويلة.

ظلوا يعزفون حتى انتابنا كثير من النشوة وبدت السعادة على وجهها، ذهبت عيني بعيدًا على سطح الماء الممتدّ حتى لم يعد يظهر بعده شيء، عندما عدت أنظر إليها اهتزت صورتها وبدأت تتلاشى كأنها غيمة تتبدد، ثم انتبهت إلى أن كل شيء كان يتبدد مثلها حتى أنا، ارتفعت حواف دوامة كبيرة احتوت المشهد على امتداده وهبطت، بداخلها كان الماء دافئًا رحيمًا كبطن أم، بينما ندور معه بهدوء وشاهدت الجوف الأزرق الكبير، دوران مستمر ثم لا شيء، ثم تبدَّدَ وصمت.. وغياب حتى الصباح..

باب القهوة

(تحكيه سكارليت)

صُبح القمر

• كيف يبدو؟ يبدو أن حجم القمر ينمو خلال هذه المرحلة، إنه في رحلته إلى اكتمال القمر.

• ما الذي يمكن أن يدعمه في حياتك؟ في هذه المرحلة يكتسب القمر كثافة؛ لذلك من المنطقي أن الوقت مناسب للتركيز على تضخيم الأشياء التي لديك بالفعل، مثل العلاقات التي تريد الانتقال بها إلى المستوى التالي؛ أموالك، مقتنياتك، إنه وقت مناسب أيضًا لتحسين جميع أنواع الاتصالات.

اكتمال القمر

• كيف يبدو؟ نعلم جميعًا كيف يبدو البدر، دائرة مستديرة ومشرقة.

• ما الذي يمكن أن يدعمه في حياتك؟ هذه هي أقوى مراحل القمر. عندما نرى مظهره الكامل المضيء، أو نعرف أنه موجود؛ فهذا هو وقت الإنجاز. هناك الكثير من النشاط في هذه المرحلة، حاول إتقان الأفكار والخطط التي لديك: التأمل والفعل والقدرة على النفاذ.

قمر متضائل

• كيف يبدو؟ يظهر القمر الآن كما لو كان يصبح أصغر وأصغر بعد أن امتلأ.

• ما الذي يمكن أن تدعمه حياتك: التخلص من العادات السيئة والعلاقات الصعبة وأي شيء آخر يكون ضارًّا بك مثل التفكير السلبي؟

القمر المظلم

• كيف يبدو؟ مظلم تمامًا وغير مرئي، وتمتد هذه المرحلة من ١,٥ إلى ٣,٥ يوم تقريبًا اعتمادًا على موقع الأرض والشمس.

• ما الذي يمكن أن تدعمه في حياتك؟ القمر المظلم هو مناسبة للبحث عن النفس والتفكير والبقاء بمفردك، إنها فترة للاستغناء عن الأشياءالتي لا تريدها في حياتك أو لا تريد أن تكون جزءًا منها.

بالأمس عندما عدتُ إلى شقتي استوقفتني جارتي اللطيفة ذات الشعر الأحمر المجعد وسألتني عن موسيقى جميلة تنساب من عندي، لم أفهم بالضبط عن ماذا تتحدث، وقلت لها إنني كنت بالخارج طوال اليوم ولم أشغل أي موسيقى، بدا عليها الاندهاش وقالت إنها اقتربت بنفسها من باب شقتي لتتأكد، قالت إنه انبعث منها عزف منفرد بالناي هادئ ومليء بالشجن والأسى، لم يكن لديَّ تعليق فابتسمت لها وقلت: ربما، في الصباح التقيت جاري الآخر عند بائع الجرائد ودار الحديث نفسه تقريبًا، ثم قال إنه أحبَّ المعزوفات ووصفها بالرائعة، قال أيضًا إنه لم يسمع مثلها من قبل.

ظل ماو مندمجًا في الكتابة والتدخين والتأمل وإعداد القهوة، قبل أن ننتقل إلى صنف آخر منها أحضره مالك، يفرك ذقنه كلما شرع في تأمل مشهد ما أو فقرة كتبها للتو، عندما تستعصي عليه فكرة أو تصور ما فإنه يظل يدفع أصابعه لتتخلل شعره كأن ما يفكر فيه يتحرك داخل رأسه وهو يراوغه بأصابعه يريد أن يقبض عليه، بدا أن أفكارًا كثيرة تتكاثف حول رأسه كغيمة كبيرة وعليه أن يسارع بتسجيلها قبل أن تتشتت أو تطير، عندما ينهمك مالك في التفكير فيما يرسم فإنه يضع كفَّ يده على فمه ويترك سبّابته فوق أنفه، ربما يفرك أرنبة أنفه بين حين

وآخر لكن أنفاسه تتوقف لفترات حتى يجد ما يعثر عليه وفجأة يتحرك من جديد، يغمس فرشاته في بالتة ألوانه ثم يعود يكمل خطًّا أو مساحة لونية على اللوحة، كنت أستمتع بمراقبتهما وهما يعملان، وكثيرًا ما كنت أنجح في اصطياد لقطات رائعة لأي منهما، أو حتى لموكا.

موكا يئست من كليْهما وبدأت تفكر كيف أن حياتها بائسة، خاصة بعد أن منعنا عنها القهوة، وأن فرص اللعب والمتعة فيها قلَّت كثيرًا وانحصرت فقط في متابعة شعاع الشمس الدافئ والانتقال تحته كلما تحرك من نافذة إلى أخرى، لم يعد على هذه الأرض مزيد من المداعبة ولا فرك الرأس ولا حتى أي دغدغة، فقط كثير من الاسترخاء والنوم.

عادةً ما كنا نتناول معًا القهوة المفلترة على الطريقة الأمريكية، ولكني كنت أفضل الاسبريسو، داومنا عليه لفترة قبل أن يُحضر مالك نوعًا آخر منها، ثم علمني كيف يصنعونها في بلاده، أحببتها وتخصصت فيها كلما كنت هناك، أعجبتني كثيرًا وأحببت طعمها عندما أنجح في صنعها كما يُحب بالضبط.

تبقى من خلطة الحبر التي أحضرتُها لماو قنينة بها سائل زيتي خفيف وقنينة أخرى بها بعض الحبر، ما زال الحبر سائلًا ولكنه اكتسب مزيدًا من اللزوجة وتكوّنت على سطحه طبقة من ألوان متداخلة وجميلة، صبَّ مالك قليلًا من الحبر فوق بالتة ألوانه وقرَّر أن يستخدمهما معًا في الرسم، ثبَّت لوحة فارغة على الحامل وبدأ يخطّ أفكارًا سريعة تراءت له في لحظتها، بعد قليل توقف

وجلس يفكر ويخلط الألوان ويتأملها، بدا أنه يبحث عن درجات جديدة وخلطات لم يُجربها من قبل، بدا أن طاقة كبيرة بداخله تريد أن تنفجر، أعجبتني الدرجات الخاصة من الألوان التي ركَّبها باستخدام الحبر، كلما تأملت المساحات التي لوَّنها على اللوحات كنت أشعر بعواطف ومؤثرات كثيفة تنتشر في محيطها، كما لو أن لها طاقة سرية عجيبة تنبعث منها، جلس يتأمل ما أنجز ثم قرر أن يذهب إلى شون ليحصل على مزيد من الأحبار، لمحت اللمعة في عينيْه وقرأت ما يفكر فيه ثم نزلنا معًا.

وجدنا الدكان خاليًا، شون لم يكن هناك وفوق المكتب الذي يتوسط الدكان تراصَّت قنينات كثيرة كروية الشكل في مجموعات متجاورة، كلها متماثلة وفي حجم الكفِّ والسائل الذي بداخلها زيتي القوام شفاف كالماء لكنه يميل في بعضها إلى ألوان أخرى باهتة؛ أحمر أو أخضر أو أزرق، لأول وهلة بدت كقنينات عطور وتناولت واحدة وقربتها من أنفي، كانت الرائحة مركزة وقوية وتشبه عطرًا جربته من قبل، لكني لم أستطع أن أتذكره، فجأة شعرت بحزن شديد حتى أوشكت عينايَ أن تدمعا، وضعت القنينة وتناولت واحدة أخرى بلون مختلف، قربتها من أنفي فهدأت حدة الحزن، رفعت غطاءها المدور المصنوع من فلين سميك واستنشقت من فتحتها مباشرة، راودني ضيق وعدم ارتياح، ثم انتابتني نوبة من البكاء الشديد، رأيت بعينَيْ عقلي مشاهد كثيرة مقبضة متتالية بلا انقطاع كشريط سينما لا يتوقف عن الدوران، كنت حزينة وكل الوجوه التي ظهرت لي كانت تعاني وتتألم، واصلت البكاء حتى كاد

قلبي ينفطر ولم تنجح كل محاولات مالك لتهدئتي ولا تمكنت من السيطرة على مشاعري.

كانت هناك مجموعات أخرى من القنينات، كلها بالحجم نفسه ولكن بعضها احتوى سائلًا معكرًا أو يميل إلى البني أو درجات رمادية، ظل مالك يُقلب فيها ثم تناول واحدة، كان مفعولها قويًّا وسريعًا، التقط نسمة من رائحتها فتسارعت دقات قلبه واحمر وجهه وبدا عليه ضيق وانقباض، في نهاية الدكان الصغير باب خشبي نصف مفتوح، فجأة تحرك وخرج منه السيد شون بهدوء وهو يحمل كمية أخرى من القنينات، يمشي كأنه يأتي إلينا من زمن آخر، لمح مالك وهو يقرب القنينة من أنفه وبسرعة رفع إصبعه محاولًا أن يمنعه ثم اقترب ورحب بنا ودعانا للجلوس، وضع المجموعة التي كان يحملها وتناول القنينة التي كانت بيد مالك وأعادها إلى مكانها.

على مكتبه راديو قديم يشبه الذي أخذه مالك من قبل، التفت إليه وقام بتشغيله، أدار مؤشره وعبرَ مساحة من الشوشرات والصفير ثم توقف عند موسيقى كلاسيكية تنساب من إحدى المحطات، شيئًا فشيئًا بدأ ينتابنا الهدوء والارتياح، كان للموسيقى التي شغلها تأثير يشبه السحر، بعد دقائق أخرى صارت نفوسنا تستقرّ وتهدأ وبدأت أنفاسنا تنتظم من جديد ونعود إلى حالتنا العادية، امتصت الموسيقى كل شيء.

قال شون يُحذرنا إن بالزجاجات مشاعر متضاربة ومتنوعة، وإن استنشاق بعضها بغير حذر أو معرفة قد يُشعر الشخص بأحاسيس سلبية خطيرة أو حتى يعرِّضه لانهيارات نفسية غير متوقعة، قال إنها

تربك الجهاز العصبي للإنسان وإن الموسيقى وحدها هي القادرة على أن تعيد إليه انسجامه.

في المساء ملأ ضوء القمر الجميل الغرفة، كانت الليلةُ ليلةَ اكتمال، وكان قرصه الرائع يملأ السماء وينير الأرض كلها، فقرة الحلم الموسيقيّ التي صارت تتكرر كثيرًا كانت مختلفة هذه الليلة ورأيت فيها شخصًا يشبه مالك، رغم أنها كانت تحفل في كل ليلة بمعزوفات متنوعة غالبًا ما تميل إلى المرح والاحتفال بحياة لطيفة، في هذه الليلة امتلأت كلها بمقطوعات حزينة في وسطها تناثرت كلمات قليلة غير واضحة بشكل كامل، لكنها تشبه نداءً لمن غاب وابتعد، هبط صوت الناي إلى طبقات شجية تنعي الفقد وترتجي اللقيا والائتناس بالأحِبة، قمت بعد منتصف الليلة وجففت دموعًا كثيرة ثم واصلت نومي كأني على موعد مع حلم آخر رائع.

في الحلم رأيتني أذهب إلى القصر ومعي مالك، نجد ممرًّا على جانبيْه حجرات كثيرة ثم نفتح باب أول حجرة وندخل لنجد في انتظارنا دمًى كثيرة مكدسة، كلها في وضع الجلوس وظهورها مسندة إلى الحائط كأنها تنتظر، العيون متسعة في صمت وفوق الوجوه نظرات محايدة بلا تعبير والملامح لبنات من أعراق متنوعة، بعض الوجوه شقراء وبعضها سمراء وبعضها بملامح أخرى، أترك يد مالك وأقترب من الدُّمى وأبحث في ملامحها عن واحدة تشبه عائلة الدُّمى التي عندي، عندما وجدتها رفعتها بين يديَّ لأعلى وصِحت بفرح:

ـ انظر.. وجدتها..

التفت مالك إليَّ، مندهشًا ولم يستوعب تمامًا بعدُ ماذا وجدتُ..

ـ مَن؟

ـ الدمية التائهة، هذه من أسرة الدُّمى نفسها التي عندي.

ـ كيف عرفتِ؟

ـ هذا القماش، انظر... نوع القماش نفسه الذي تضعه الدمية الأم على رأسها، الرسم والألوان والخامة نفسها، انظر إلى وجهها؛ الأنف نفسه والعينيْن أنفسهما، والشفاه المدورة الصغيرة نفسها.

كان الأمر غريبًا، مع ذلك شعرت بالفرح لها، نفضَتْ عنها التراب وأخذتْها في حضنها كأم وجدت طفلتها الضائعة بعد سنين من الغياب.

ـ أجمل بكثير مما توقعت، تشبه قليلًا جارتي ذات الشعر الأحمر.

كان الحلم طويلًا وجميلًا وحاولت أن أستعيده من جديد فواصلت النوم ولم أقم حتى وقت متأخر ولكن بلا جدوى، قمت فقط عندما يئست وذهبت مباشرة إلى المرسم.

التأملات والطقوس خلال اكتمال القمر

تزداد الحواس رهافة في وقت اكتمال القمر، يصبح الوقت أكثر مناسبة للتأمل من أي نوع، تصير طاقتك أكثر كثافة وتصل قدراتك كلها إلى ذروتها، على الأخص النفسية الطبيعية.

امتصاص الطاقة

عند الحديث عن الطاقة المحيطة بالبشر يجدر القول إن الإنسان يمكنه امتصاص الطاقة مما/ ممن يحيط به، مكان أو شخص، ربما من شخص لا يشعر بالرضا، يجب التركيز على وضع درع الحماية النفسية عند وجود مصادر للطاقة السلبية في الجوار.

الأشخاص الحساسون للقمر

سوف تشعر بالتوتر إذا دخلت مكانًا من سماته أنه يحتفظ بالطاقة السلبية لأشخاص مروا به من قبل، إذا كنت في يوم سعيدًا وتحادثت مع شخص أو أشخاص معينين عبر التليفون أو حتى عبر الرسائل النصية وشعرت بالاستنفاد؛ فهؤلاء الناس مصاصو دماء للطاقة، ربما حتى إنهم لا يعرفون ذلك.

إذا كنت من النوع الذي يلتقط من الأماكن أو الأشخاص قدرًا من الطاقة السلبية بهذه الطريقة فقد تكون حساسًا للقمر.

إذا كان بإمكانك تجاهل هذه الطاقة السلبية فقد تكون متسامحًا مع اكتمال القمر.

الحساسون للقمر يمكنهم التقاط الطاقة السلبية مثل الإسفنج.

باب الموت

(یکتبه ماو)

ماو/ أرواح لا تشيخ/ اسم مؤقت/ رواية

مرسم هوجو الذي يقع فوق الجاليري عبارة عن مساحة مفتوحة لا تشغلها إلا عناصر بسيطة؛ مقعدان من طراز قديم وكنبة وحاملان للرسم، تمتلئ المساحة المتبقية كلها بلوحات كثيرة بعضها في صفوف متجاورة وبعضها معلق على الحائط، عادة ما يترك هوجو لوحتيْن أو ثلاث لوحات مسندات بعضها إلى بعض في منتصف المرسم ليعود للعمل فيها بعد أيام، يضعها وجهًا لوجه كصفحات مغلقة، كثيرًا ما يلزمه أن تبهت الصورة المسجلة في ذهنه لأي منها فينظر إليها بعد أيام كأنه يراها لأول مرَّة، حينها يراجع انطباعه عنها كأنه شخص آخر غير الذي رسمها، كأنه واحد من جمهور الفن أو نُقاده.

الحائط الخلفي البعيد للمرسم فيه ما يشبه مطبخًا صغيرًا أو بوفيهًا يفصله عن المساحة المخصصة للرسم بار رخاميّ، الواجهة زجاجية بالكامل من طراز حديث يتكرر في المدينة كثيرًا ويحبه سكانها ويسمح للشمس أن تنساب ويفيض نورها ودفئها في المكان، تغلب على المكان رائحة الألوان والزيوت المختلفة التي يستخدمها هوجو أو يخزنها لحين الاحتياج إليها في مشروع خاص، للألوان تكنولوجيا خاصة يجب على كل فنان أن يدرسها جيدًا لتساعده على حشد أكبر قدر من العواطف المؤثرة بين أضلاع لوحته.

مجموعته الأثيرة من الوجوه التي يرسمها بأسلوب خاص تحتل الجانب الأيمن كله، يأتيه زبائن ليحصلوا على صورة شخصية مرسومة بأسلوبه الفريد، من بينهم وجوه معروفة لموديلات أزياء أو فتيات غلاف أو جميلات من كل مكان، في معرضه الدائم في الحديقة ينظمها بشكل مختلف قليلًا يراعي فيه مستوى آخر من أذواق مَن يمرون به هناك، أما هنا فلا يحب ترتيبها في صفوف منتظمة، يحرص فقط على أن تكون موزعة على الحائط في اتزان واتساق عام، ربما يخلي مساحة منه لتكون خلفية صامتة تناسب الموديل الذي يجلس أو تجلس أمامه، اختارت جابي المقعد البرتقالي ذا الظهر المرتفع ووضعته هناك، ينتمي طرازه إلى ستينيات القرن الفائت وهي أحبت فيه بساطته وتميزه، ولكن ما يحبه فيه هوجو هو أنه يتيح حرية توجيه جذع الموديل في أفضل وضع للرسم، ولأنها كانت أقرب للنحافة أجلسها هوجو في وضع ينثني فيه جذعها قليلًا ليُبرِزَ قدرًا لافتًا من أنوثتها، تناولت الفيولين ومسحت وجهه وداعبت الأوتار بخفة لتتأكد من ضبط نغماتها ثم وضعته بحنان على كتفها، سوف تعزف جزءًا من كونشرتو الربيع، المقطع الأول الرائع الذي يجعل البهجة تشع من وجهها وتحيل المكان إلى حديقة نابضة بالألوان، هوجو أيضًا يحبه كثيرًا.

نظرت في المرآة الطويلة في الجهة المقابلة لها طويلًا ثم ثبتت على وجهها ابتسامة خفيفة وأرخت جفنيْها في دلال وهو أحبَّ هذا الوضع ورفع كفَّ يده يشير لها بأن تثبت عليه، أحنت رأسها قليلًا جهة اليمين فأبرزت رشاقة رقبتها ثم سكنت وبدأ هو يضع خطوطه الأولى في اللوحة.

مرَّت نصف ساعة وشعر بها تتململ في جلستها، كان قد انتهى من الخطوط الرئيسة للوجه والجسم، وضع تحضيرات لونية غنية سوف تساعده كثيرًا في مرحلة التلوين النهائي، شعر بالرضا وسألها إن كانت تريد استراحة وهي ردّت بالإيجاب.

انتقلت إلى الكنبة وذهب هو إلى البار وعاد بكأسيْن من النبيذ الوردي الذي يحبانه، اقترحت أن يشغل موسيقى فترك كأسه واستدار ليفتح اللابتوب على المنضدة التي وراءه، استغرق ثلاث دقائق ليضع قائمة من موسيقى كلاسيكية يعرف أنها تحبها، سوناتات فيولين متتالية لألبينوني(*)، ثوانٍ قصيرة كانت كافية لتُخرج قنينة صغيرة كروية الشكل من حقيبتها وتصبّ منها قطرات في كأسه دون أن ينتبه، غابت الابتسامة عن شفتيْها للحظات كانت تحصي فيها القطرات التي تسقطها في الكأس ثم عادت من جديد كما كانت، أرخت جسدها على الكنبة ورفعت كأسها بين أصابعها ببطء شديد ورشفت منه، في اليوم التالي سوف تطلب منه أن يشغل سيمفونية بيتهوفن(**) الخامسة، وفي الذي يليه سوف تتركه يختار ما يريد فيشغل بدون تردد قداس الموت لموتسارت(***).

(*) ألبينوني (Tomaso Albinoni): مؤلف موسيقي إيطالي شهير وعازف فيولين.

(**) بيتهوفن (Ludwig van Beethoven): من أعظم عباقرة التأليف الموسيقي في كل العصور، السيمفونية الخامسة من أبرز أعماله، وتعرف أيضًا باسم سيمفونية «القَدَر».

(***) موتسارت (Wolfgang Amadeus Mozart): أيضًا من أعظم عباقرة التأليف الموسيقي. قداس الموت (Requiem Mass in D minor)؛ آخر ما ألفه موتسارت قبل موته.

قبل أيام فكرت في قطرات من سم فتّاك تضعها في مخزن سري في خاتم غامض برأس كوبرا، تُحرِّكُ الرأس بخفة وتفرغ محتواه في كأسه، طريقة مجربة ومضمونة النجاح لكنها تقليدية وخطيرة، تبقى آثارها في الدم لتشي بمَن فعلها، فكرت في طرقٍ أخرى كثيرة وأنواع من السموم مضمونة النتائج، لكنها وجدت ما هو أكثر ابتكارًا؛ قنينة نصف ممتلئة من زيت روح الحزن المعتق، حصلت عليها من دكان في شارع السوق يبيع تُحفًا وأشياء قديمة، جرعات يومية تفرغها في كأس النبيذ الوردي الذي يحبه، ثلاث زيارات في ثلاثة أيام متتالية هي المدة التي استغرقها ليرسمها في لوحة جديدة كانت أكثر من كافية، في اليوم الأول أصابه غمٌّ وحطت عليه روح كآبة لا يعرف لها سببًا، في البداية ظنها وعكة أرق اعتادت أن تزوره كلما انشغل بمشروع أو بعمل جديد، في اليوم التالي ومع الجرعة الثانية تكررت الوعكة مع زيادة في الأعراض، لم يرغب في الذهاب إلى أي مكان، حتى إنه لم يفتح باب الجاليري للزبائن والزوار اليوميين ولم يجد في نفسه أي طاقة لتحمُّل أي مرور بشري، أغلق تليفوناته ولم يستمع لأي موسيقى، في اليوم الثالث تعجَّلتِ الأمر وضاعفت الجرعة فراح في دوامة من الحزن لا خلاص منها، لم يتحرك من مكانه وغرق في حزن جعله يستدعي من مخزن ذكرياته كل مأساة مرّ بها في حياته ويضخمها لتصير بحجم وحش كبير قبيح المنظر يطارده ويريد أن يخنقه، وحوش كثيرة ظلت تطارده إلى أن سلَّم لها نفسه وقضت عليه، لم يجد مَن ينقذه لأن حالته كانت غير مفهومة لم يعاينها الطب من قبل.

بعد أسبوعيْن من هذا اليوم أتى موعد الحفل الشهري الكبير لأوركسترا المدينة، في الكوافير القريب من شقة ماري والذي تعودت أن تمرَّ به لتصفف شعرها بشكل مناسب قبل كل حفل، وقفت مديرة الكوافير تصرخ من الصدمة والخسارة التي سوف تتعرض لها، ستكون مُلزمة بشراء مجفف شعر جديد عوضًا عن الذي احترق ولم يعد يصلح للعمل، سوف يتكلف حوالي ١٠٠٠ دولار ولم يكن العمل في هذه الأيام في أحسن حالاته، وفكرت السيدة في أن تكتفي بالتخلص من بقايا الرأس المتفجر وإصلاح المجفف، ولكنها خشيت من أن يتسبب هذا في حصولها على مخالفة ما من مكتب الصحة بالمدينة، خشيت أيضًا من أن يثير هذا غضب زبائنها من النخبة.

كان شخص متوسط الطول يخفي وجهه ويرتدي ملابس سوداء وحذاء رياضيًّا من ماركة مميزة قد دخل الكوافير بسرعة ثم ألصق فوهة مسدسه الصغير في هذا المجفف بالتحديد ثم ضغط على الزناد، وكان رأس ماري بالداخل، كانت تصفف شعرها قبل أن تذهب لحفلها هذا المساء في أوبرا المدينة، لن تذهب ماري إلى الأوبرا اليوم، سيأخذونها إلى المشرحة ومنها إلى المقابر وبالتأكيد سوف تتوقف عن الذهاب إلى مرسم هوجو.

صرَّح المحقق الذي تولى القضية أن الفاعل لم يكن رجلًا وإنما هو على الأرجح سيدة، وأنهم سيحاولون التوصل إليها، الفتاة التي التحقت بالعمل بالكوافير منذ شهريْن فقط قالت إنها لاحظت أن أصابع الجاني لم تكن تشبه أصابع رجل، وأن الأظافر كانت تلمع من أثر الاعتناء الجيد واستخدام مقوّي أظافر، حاولت ألا يسمعها

أحد وهي تهمس لأحد الصحفيين الذي سارع بالمجيء إلى محيط المكان:

ـ لقد كانت أصابعها رقيقة وصغيرة، والمسدس الذي تحمله صغير أيضًا، لقد ظننته مسدس أطفال وليس مسدسًا حقيقيًّا.

هنا تدخل المحقق وهو يشعل سيجارة جديدة، مال على الصحفي ليمنحه سبقًا وقال بثقة:

ـ نعم نعم، هذا صحيح، الفحص الفني السريع الذي أجريناه أكد هذا بالفعل، إنه مسدس صغير من عيار ٦ مم لا أكثر، يمكن الحصول عليه بسهولة هنا من أي من تلك الشوارع الخلفية.

في نهاية اليوم تسرب على اليوتيوب فيديو صغير مدته ١٥ ثانية فقط، ظهر فيه الثقب الصغير في مصفف الشعر وطرف الكرسي الذي كانت تجلس عليه ماري غارقًا في الدم، وفي ظرف ساعتيْن حقق عددًا مهولًا من المشاهدات.

سوف تُضللهم جابي وتهرب ببراعة ولن تمكنهم من العثور عليها أبدًا، ماري التي كانت زميلتها في الأوركسترا لم تكن إلا عشيقة أخرى لهوجو، مجرد رقم من وسط مجموعة أخرى، في زمان مضى كانت جابي تمتلك قلب عصفور مرهفًا ولا مثيل لرقته ولا لحساسيتها، قبل أن تطعنها الحياة في ظهرها عددًا لا يُحصى من الطعنات، لم تقتلها الطعنات ولم تقوِّها ولكنها فقط جعلت قلبها قاسيًا تمامًا ولا يتسامح مع الخيانة، حتى لو كانت من أعز صديقة لديها وحتى لو كانت من هوجو الذي أحبته حقًّا.

الآن عليها أن تذهب بسرعة إلى كوافير آخر حتى لا تتأخر عن موعد الحفل، سيكون من الضروري تواجدها ومشاركتها لأن الفرقة سوف ينقص منها فرد في حفل مساء اليوم، في فقرة العزف المنفرد الخاصة بها بكت جابي، بكت كثيرًا حتى إن الدموع جعلتها لا ترى النوتة جيدًا، أشار لها المايسترو أن توقف العزف لو أرادت لكنها أكملت من ذاكرتها ببراعة شديدة لا تقلّ عن براعتها في التخلص من مشاكلها العاطفية.

باب الفَرح

بين حين وآخر في فترات الراحة أو في التمشيات بلا هدف التي تعودنا عليها معًا كانت سكارليت تحكي لي أطرافًا من أحداث مرت بها، في أول تعارفنا لم تكن تميل إلى هذا كثيرًا، بمرور الوقت واتساع مساحات التشارك فيه كان لا بدَّ أن يمتدَّ الحكي ليغطي مساحات أخرى من حياتها، وشعرت أن لديها مخزونًا من الحكايات لم تجد من قبل مَن تفرغها عنده بارتياح.

من جانبي أنا ففي بحر الفراغ الممتدّ الذي وضعت نفسي فيه في هذه المدينة أمكنني أن أفكر في أشياء كثيرة مرت بي ولم أكن أفرغ نفسي لفهمها كما ينبغي، وبدأت أكتشف وأرى كيف أثَّر انهماكي في العمل في أوقاتي القديمة بالسلب على علاقاتي وروابطي مع الآخرين، ذلك الشعور المكثف والدائم بالرغبة في الإنجاز والتقدم في العمل والارتباط بمواعيده وظروفه الصارمة، بناء في موقع يقابله هدم في موقع آخر، رغم كل الزحام الذي كان موجودًا فقد وقعتُ في عزلة لم أنتبه لها، بالنسبة لي كان في هذا دافع أكثر من كافٍ لكي أمنح مَن حولي مساحات أوسع من الوقت وبدأت بالفعل أترك هذه المساحات متاحة أمام ماو وأمام سكارليت وأيضًا في مستوًى آخر أمام سيرينا وهوجو.

أحببت أن أستحثها على الحكي، حتى لو لم ترغب في التوقف قط، أعطي لها أذنَيّ كاملتيْن وأصفي روحي كي أندمج معها في فيض

مشاعرها التي تفرغها أمامي، أضع نفسي في قلب حكايتها وأحرص على أن أستفسر عن تفصيلات قد تخشى هي أن تسترجعها، حاولت أن أفكك هذه التفصيلات وأوضح كيف أن للحياة آليات قد تبدو شديدة الحُمق لنا لكنها في النهاية لا يمكن تجنبها لأن وراءها تسلسلًا من أحداث أخرى أسَّست لها، كنت أمارس معها هذا للمرة الأولى في حياتي، وكان الأمر مجهدًا حقًّا في بداياته، وبمزيد من الممارسة عرفت أن أمورًا كتصفية النفس وتوجيه مستشعراتها هي قدرات بشرية من شأنها أن تضمر إذا لم يتمّ استخدامها لفترات طويلة، فسَّر لي هذا الفهم كيف ولماذا يبدو بعض الناس كأنهم كُتل مسطحة خالية من التعبير أو التعاطف مع الآخرين.

ومعها كنت أكتشف حتى آليات لفهم وتفسير الحياة لم يخبرني أحد عنها من قبل، ولم أكن أنا نفسي قد اطلعت عليها، وصار يسعدني دائمًا أنها تسمع لي وتقبل مشاركتي في هذا التحليل الذي جعلني أكتشف في نفسي مواهب فرويدية صغيرة تحتاج إلى تنمية.

في المرسم كنت منهمكًا في استكمال واحدة من اللوحات ويسود المكان هدوء، سيرينا أتت مبكرًا بينما تأخرت سكارليت كثيرًا، وعندما دخلتْ كانت مرهقة وبدا أنها لم تستيقظ تمامًا بعد، مباشرة بعد دخولها بدأت تحكي لنا جميعًا بقدر من الحماس عن الحلم الذي رأته عن دخولنا القصر معًا وعن عثورنا على الدمية المفقودة، كانت تحكي بحماس كأننا لو ذهبنا للقصر فعلًا فسوف يتحقق الحلم ويكتمل، كنت أريد أن أستجمع تركيزي لأنجز شيئًا

في الرسم وتشوشني أفكار كثيرة متقطعة، لم تجد سكارليت مني إقبالًا على الفكرة فوضعت رأسها في اللابتوب وجلستْ ومرَّ الوقت على هذا الحال، ماو يكتب ويدخن ولا يتحرك أحد ولا يتكلم أحد حتى موكا أهملتنا تمامًا وكأنْ لا شيء حقًّا يربط بيننا، في الخارج كان الجو رائعًا وكنا قد تجاوزنا منتصف النهار بقليل، كانت سيرينا تقرأ في مسودات ماو وأنا قمتُ وصنعتُ قهوة للجميع، وقفتُ في النافذة البانورامية أنظر إلى القصر وأشغل نفسي عن وجودهم، كان ذهني خاليًا لكن كلماتها التي ما زلت أذكرها بدأت تقاطعني، تستحثني أفكارها على أن أتخذ خطوة في حياتي في أي اتجاه كانت، لا أذكر أن التردد كان صفة ملازمة لي منذ طفولتي، فكرت أن ربما حالة التراخي والابتعاد التي وضعت نفسي فيها في الفترة الماضية هي التي شوَّشت على قدراتي على اتخاذ قرارات حاسمة، فكرت أيضًا أنني كثيرًا ما كنت أقبل بحلول وسط ولا أغامر، لا.. تذكرت الآن.. كنت أغامر كثيرًا، كنت أيضًا أفشل كثيرًا، لا لم أفشل.. كانت هذه مكاسب مؤجلة التحصيل، حسنًا ربما هذا صحيح لكنني لم أنكسر.. لا لقد انكسرت، لا.. كيف هذا؟ إذن كيف جئت إلى هنا؟ إذن لم أكن حتى مترددًا!

لكني تخاذلت وآثرت أن أتوقف عن التفاعل..

لا... انتظر ربما..

استمر هذا النقاش بداخلي لفترة كانت كافية لأن ينتبه أحدهم، شعرت بكف صغيرة تمسّ كتفي بهدوء فالتفت وكانت سكارليت، ابتسمَتْ وابتسمتُ لها، تقدمتْ خطوة ووقفت بجانبي في النافذة.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء..

بقينا في هذا الصمت قليلًا ثم خشيت أن أكون مملًّا أو أن أبدو مقبضًا وسط جو رائق، استدرتُ جهة الداخل فوقعت عينايَ مباشرة في عينيْ سيرينا بينما بقيت سكارليت لم تنتبه لحركتي، سيرينا أومأت بعينها جهة سكارليت وأشارت لي بتحريك كفها المنبسطة جهة الخارج وبما يعني دعوة للخروج، كانت فكرة جيدة، لمستُ ذراعها وتحركتُ جهة الباب وهي أحضرت حقيبة كتفها وتبعتني.

في الخارج، وبعد عدة خطوات انبعث مزيج من الدفء والطراوة في باطن كفي حيث تركت كفها الصغيرة، كأنها في مكانها الطبيعي التي تنتمي إليه، مشينا خطوات أخرى ثم غيرتُ اتجاهنا بدلًا من الحديقة إلى القصر، اقتربنا من الميدان ثم عبرناه، دُرنا حول السور نبحث عن فتحة فيه قالت إنها تعرفها، ومنها تسللنا إلى الداخل واقتربنا من جدرانه، كان الأمر ممتعًا ونحن نتحرك بخفة شديدة، بنصف جاذبية أرضية تقريبًا، توقفنا عند الباب الرئيس الداخلي نفكر كثيرًا قبل أن نحاول دفعه، اختلط صوت صرير الحديد بصوت تكات متتالية بينما كان الباب الثقيل ينزاح ببطء، انفتح بما يكفي لدخولنا معًا لكن رهبة اجتاحتنا وثبتتنا في موضعنا لدقائق.

ـ ربما كنا أول مَن يخطو هنا منذ قرون.

قالت وهي تتلفت:

ـ أظن ذلك..

دخلنا البهو الذي اكتست أرضه برخام فخم مترب قليلًا من أثر الترك والإهمال، ينفذ القمرالأزرق من نوافذ طويلة أعلى بسطة السلم وتنساب الشعاعات تخترق الفراغ في خطوط مستقيمة لتهبط في النهاية على جدران مسطحة وخاوية، في كل ركن من أركان البهو الخمسة كانت هناك تماثيل كاملة لشخوص في أحجام أصغر قليلًا من الحجم الطبيعي، يقفون في ثبات ويتطلعون جهة أعلى مركز البهو، كانت الوجوه كلها هادئة توشك على أن تبتسم، كأنهم مدعوون إلى حفل استقبال يقيمه أصحاب القصر.

بدا المكان كأن أحدًا لم يسكنه قط ولم يترك أثرًا فيه، كأنه لم تمرّ من هنا أرواح تتنفس ولم تخترق الفراغ أصوات لأشخاص يحبون أو يكرهون أو يفرحون أو يحزنون.

في منتصف البهو سلم مزدوج، تصعد درجاته من كل جانب ثم تلتقي في بسطة مستطيلة الشكل تتفرع من جديد إلى سلميْن آخريْن، صعدنا بهدوء ونحن نتأمل حديد الدرابزين الملفوف بزخارف ورقية كثيفة حتى انتهى بنا إلى بهو الطابق الثاني، تجولنا في محيطه واقتربنا من نوافذه لنرى كيف تبدو المدينة من خلالها، بالداخل كان الهواء مكتومًا وخانقًا وبدا كل شيء مقبضًا بما يفوق قدرتنا على التحمل، نظرت إليها وتفاهمنا على الاكتفاء بهذا والعودة من حيث أتينا، نزلنا معًا واتجهنا نحو الباب الكبير، كانت الشمس قد مالت نحو الغروب وامتدَّ منها شعاع عبر النوافذ المستطيلة وانتهى ليضيء مقطعًا طوليًّا منه، أسفل مقبضه المزخرف تمامًا اتخذ الحديد الملتفّ شكل كتابة لافتة يدور حولها إطار سميك، اقتربنا لنكتشف الحروف المدمجة بطرازها القديم شديد الفخامة، تمتمت

سكارليت وهي تقرأ العبارة باللغة المحلية ثم تترجمها: أعظم الفرح هو الخروج من الحزن.

لا أعرف كيف مشينا كل طريق العودة دون أن ينطق أي منا بكلمة واحدة، بالنسبة إلى سكارليت كان حلمها القديم الصغير قد تحقق بدخولنا القصر، ورغم أن التجربة لم تكن عند أفضل توقعاتنا فإنها كانت مرضية، ربما نحاول مرَّة أخرى لو وجدنا وقتًا مناسبًا.

حفزت زيارة القصر ماكينة الأحلام بداخلي، وفي هذه الليلة في الحلم رأيت أنني في القصر مع سكارليت من جديد، صعدنا إلى الطابق الثاني ووجدنا أمامنا بابًا دفعته بحذر بأطراف أصابعي فانسحب إلى الوراء بسهولة لا تتفق مع حجمه الكبير، لم ينفتح على حجرة بل على ساحة متسعة أرضها خضراء ممتدة بلا نهاية، بساط من نجيل يشبه ملاعب الجولف تتخلله مجموعات متناثرة من شجيرات صغيرة، غير بعيد مقعد وحيد يجلس عليه رجل تحت ظل شجرة، الشمس ليست قوية والسماء ليست صافية تمامًا، انتشرت بها سحب أحجامها متنوعة، من أحد الأركان ظهر رجل آخر يحمل موجة زرقاء كبيرة ويمشي بها، تستقرّ على طرف الموجة البعيد سفينة صغيرة، دخلنا ومشينا باتجاه المقعد، النجيل على الأرض كثيف وخشن ويشبه سجادة من فرو أو من صوف إلا أنه رطب قليلًا، عندما اقتربنا ظهر أن المقعد لم يكن مستقرًّا على الأرض ولم يكن مثبتًا فيها، بدا الرجل الجالس صامتًا تمامًا ولا يتحرك، اقتربنا أكثر حتى فوجئنا به خاويًا كجذع شجرة تُرك في العراء لعشرات السنين،

سكارليت أصابها رعب وتشبثت أكثر بذراعي، ما زال الرجل الآخر يسير بالموجة الكبيرة التي يحملها وفوقها السفينة تتأرجح مع كل خطوة يخطوها ويرتجّ الماء فوق كتفيْه، فجأة أنزل إحدى ذراعيْه ووضعها على صدره وانحنى وانتفض كأنه يسعل، ارتجَّت الموجة بشدة وبدأت تتصدع وتنفك صلابتها ثم انهمرت كلها على الأرض واندفعت كفيضان هائل في سبيلها لإغراق المكان كله، قبضت على يديْ سكارليت بقوة وجرينا بسرعة نسابق اللحظات والثواني باتجاه الباب، دفعناه وألقينا بنفسيْنا خارجه وأغلقناه تمامًا ثم وقفنا خلفه لنمنعه من الانهيار تحت ضغط الماء، أنهكنا الاندفاع المفاجئ والجهد الذي بذلناه على غرة فسقطنا معًا على الأرض واحتفظنا بظهريْنا يدعمان الباب كي لا يسقط، تسارعت أنفاسنا معًا وكان الزفير يخرج دافئًا كثيفًا كأنه دخان.

استيقظت وأنفاسي متسارعة كأنني لم أخرج بعدُ من الحلم، تناولت ورقة وسجلت عليها رسمًا سريعًا لما رأيت، عندما ذهبت إلى المرسم وضعت على الحامل لوحة جديدة ورسمت كل شيء بتفصيلاته كافة.

ذكرتني سكارليت بحلمها عن دخول القصر فوضعت لوحة أخرى جديدة وأجلستها بجانبي وبدأتُ أرسم ما تحكيه.

بعد ذلك توالت عليَّ أحلام أخرى رائعة، وبدأ المرسم يزدحم باللوحات الجديدة.

باب اشتباك التفاصيل الصغيرة

(تحكيه سكارليت)

جاليري هوجو الذي سوف يعرض مالك فيه أعماله يقع في شارع السوق القديم، والمسافة بينه وبين الفندق يمكن قطعها في دقائق قليلة مشيًا على الأقدام، الحي كله قديم وتراثي وتمتلئ الشوارع المحيطة به بأبنية من طرز قديمة شهد بعضُها أحداثًا تاريخية مهمة، ثُبتت عند بعض المداخل لوحات نحاسية توثقها، ورأيت صورًا متفرقة لها في كتاب التاريخ.

في الفترة الأخيرة نشط مالك وأنجز عددًا من اللوحات الجديدة، كل المساحات البيضاء التي بقيت مسندة على الحائط لفترة طويلة امتلأت الآن برسوم رائعة، ألوانها قوية وشخوصها تملأ أركان اللوحات بالحركة والتعبير، تنساب فرشاته بالحبر وبالألوان فوق أسطح اللوحات بسلاسة وبسرعة ويتشكل عالم جديد في كل لوحة، تناول اللوحات المرسومة وعلقها على حوائط المرسم، خطفت اللوحات قلبي وأبديتُ له إعجابي بها وانتبه ماو إلى ما يحدث ووقف أمام كل لوحة يتأملها ويناقش مالك في مكوناتها وفيما توحي به، كل اللوحات كانت تنبض بالحيوية وينتشر منها دفء كشعاعات شمس قوية.

في غمرة هذا الانشغال توقفنا عن ممارسة تلك التمشيات الطويلة التي تعوّدنا عليها، لكننا لم نتخلَّ عن زيارة الحديقة مرَّة على الأقل كل عدة أيام، وفي كل هذه الزيارات لم يتصادف

أن وجدنا هوجو هناك في ركنه المعروف، ظننا أنه انتقل إلى مكان آخر أو أن لديه من المشاغل ما يمنعه من التواجد، عندما أوشكت مجموعات اللوحات على الاكتمال واقترب موعد المعرض ذهب مالك إلى هوجو في الجاليري فوجده مغلقًا وهوجو لا يرد على تليفونه، عاد وسأل جيرانه في الشارع وأجابوا كلهم بأنهم ليس لديهم أي معلومات، كان الأمر غريبًا.

ماو لم يفاجأ عندما تكلم مالك في الأمر أمامه، لكنه اندهش عندما علم أن هناك موعدًا للمعرض حدده هوجو لمالك، مالك أيضًا كان قد نسيَ أن يخبره، تكدّر وجه ماو ولاذ بصمت طويل، اقترحت على مالك أن نبحث عن جاليري آخر ليعرض فيه ولكن ماو طالبنا بأن ننتظر ليوم أو يوميْن، بعد يوميْن اتصلت جابي بمالك ودعته للقاء في الجاليري، ذهبت مع مالك وهناك أخبرتنا أن هوجو تعرض لحادث وأنه انتقل إلى عالم آخر ولم يعد موجودًا هنا، أوضحت لنا أن ملكية الجاليري وكل شيء آلت إليها بحكم أنها كانت تعيش معه في الفترة الأخيرة، قالت أيضًا إنها سوف تلتزم بإقامة المعرض في موعده الذي سبق أن حدده هوجو ومالك.

خرجنا من الجاليري وعبرنا الشارع ومشينا لمسافة وتوقفنا عند فاترينة تعرض صناديق زجاجية بها أسماك ملونة، ظلَّ مالك يتأملها لدقيقتيْن قبل أن يسأل كيف عرفت جابي رقم تليفونه!

كانت عيون الأسماك كلها مستديرة وبـارزة ومتسعة كأنها تعمدت أن ترسم تعبير اندهاش على وجوهها.

قبل افتتاح المعرض بيوميْن نقلنا اللوحات ووضعناها في الجاليري، تركها مالك متجاورة على الأرض وتستند إلى الجدران ثم وقف يتأملها ويفكر في طريقة لترتيبها في العرض، بقينا ندور حولها حتى مضى وقت كثير وفي نهايته قمت وأعدت ترتيبها بحسب مجموعاتها اللونية، وجد مالك اقتراحًا وجيهًا، الداخل إلى القاعة سيكون عليه أن يبدأ بجدارها الأيمن الأقرب إلى الباب، سوف يتحرك معه حتى الجدار المواجه ثم الجدار الأيسر، وستأخذه اللوحات في رحلة عبر عوالمها اللونية، مشينا نمرّ باللوحات واحدة فالتي تليها، أشير وأصف مكونات كلٍّ منها وأحاول أن أستشعر الأثر الذي يمكن أن تحدثه في المشاهد الذي يمرّ بها، كأن حوارًا يدور بين الأعين وبين أسطح اللوحات، ثم توقفت عند اللوحة الأخيرة، بدا منطق الترتيب واضحًا، كأنه سيناريو مكتوب وهو بدا مقتنعًا وراضيًا، ثم أحضر خيوطًا شفافة علق بها كل لوحة على مسافة خطوة من الحائط، سلط إضاءة مُركزة على الحائط خلف كل لوحة، اختار ألوان الضوء بعناية شديدة بحيث تبدو كل لوحة وكأنها تسبح في فراغ يخصها، عالم صغير خُلق لها بالتحديد.

في يوم الافتتاح جاء ضيوف كثيرون، دعت جابي عددًا من فناني المدينة ودعوت أصدقائي وكذلك فعل ماو، حضر أيضًا عدد من الصحفيين والمثقفين المعروفين، وبمرور الوقت جاء زوار آخرون عن طريق الدعوات العامة عبر الإنترنت.

لم يسبق أن رأيت مالك في هذه الحالة من التوتر من قبل، في يوم الافتتاح بدا منشغلًا وغير منتبه، كنا في الجاليري منذ الصباح الباكر وجاء ماو في منتصف اليوم وسألني عنه، لا أعرف أين ذهب

لكنه عندما ظهر أخبرته بشأن ماو وأنه ينتظره بالداخل، نظر إليَّ بلا أي تعبير على وجهه وكأنه يسمع الاسم لأول مرة، بعد ثوانٍ تدارك الأمر ثم مشى في اتجاه آخر إلى خارج الجاليري.

كانت هناك عصافير ورقية ملونة تحلق بهدوء في سماء القاعة، تقف أحيانًا فوق كتف أحد الضيوف وأحيانًا أخرى على طرف واحدة من اللوحات أو الأثاث البسيط الذي كان هناك، ماو كان سعيدًا وقدَّم لنا أصدقاءه الذين دعاهم.

جاءت عربة كبيرة ونزلت منها أضواء وكاميرات ومذيعة وضعت في وجهها ألوانًا كثيرة وراحت تتجوَّل في المكان، صورت اللوحات وأجرت لقاءات مع عدد من الضيوف وجهزوا مقاعد بالقرب من اللوحات، وجلسنا أنا ومالك وماو وجابي ودار حوار حول المعرض واللوحات والفن والمدينة وأشياء أخرى، في النهاية شكرتنا المذيعة وأخبرتنا عن موعد إذاعة البرنامج مساء اليوم التالي في محطة التليفزيون المعروفة.

حدث بعد ذلك أن وقفت واحدة من زوار المعرض تتأمل لوحة من اللوحات الكبيرة، كانت الكاميرا في يدَيَّ أجوب المعرض بحثًا عن لقطة تستحق التسجيل، تابعتُها منذ جذبتها اللوحة وهي تمشي إليها، كلما اقتربَتْ منها كانت خطواتها تسرع إلى أن توقفت أمامها، أخذت عيناها تجوبان اللوحة من جهة إلى أخرى كما لو كانت تقرأ فيها رسالة مكتوبة، تقترب منها وتدقق في بعض أجزائها كأنها تريد أن تنغرز فيها، ثم راحت تمسح بيديْها على شعرها المنساب، تمسح وجهها، طبقت منديلًا ورقيًّا في كفٍّ

يدها وأخذت تمسح جبهتها، بدا أنها تعرقت، تمسح خديْها، ثم بدأت تمسح عينيْها، أطرقَتْ وأخرجت منديلًا آخر ومسحت مزيدًا من الدموع، ثم بدأ ارتعاش يصيب يديْها ثم راح يجتاحها، ينتفض جسدها كله، صوتها بدأ يعلو وهي تجهش ببكاء حارٍّ، تحول بكاؤها إلى نحيب حتى لفتت الأنظار واقتربت منها امرأة أخرى من الحضور تواسيها وتستطلع ما بها، ارتمت في حضنها وهي تبكي وأخذت الثانية تربت على كتفها في ارتباك وتأثر وبان على وجهها أثر الصدمة والمفاجأة، اقتربت أنا أيضًا لأرى ماذا يجري، عندما صرت إلى جوارهما تمامًا كانت المرأة الثانية ترفع وجهها إلى اللوحة للمرة الأولى ولفتني التحول السريع في ملامحها بداية من اندهاش إلى أن وصلت إلى نحيب حاد مثل المرأة الأولى، وقفت بينهما لا أعرف ماذا أفعل ولا أيهما أواسي أولًا ولا أفهم ماذا يحدث، لفت الوضع الغريب زوّارًا آخرين وزائرات وجعلهم يقتربون ليروا ماذا يحدث، بعد قليل تحوَّل المكان أمام اللوحة إلى ما يشبه مأتمًا صغيرًا.

خشيت إن لم أستطع تهدئتهم أن يتحول افتتاح المعرض إلى مأتم حقيقي كبير، تلفتُّ أبحث عن مالك أو جابي ولم أجدهما حولي، تحركتُ وسط الناس أبحثُ عنهما إلى أن فوجئت بمجموعة أخرى من زوار يتزاحمون أمام لوحة أخرى، خشيت أن يتطور الأمر معهم وتذكرت ما فعله شون معنا أنا ومالك عندما عالجنا بالموسيقى.

أكملت بحثي عن مالك ووجدت مجموعة ثالثة حول لوحة أخرى في آخر القاعة، وبينما كنت أحاول أن أفهم ما عندهم فوجئت به يظهر أمامي، كان يبحث بدوره عن جابي..

ـ لا أعرف، كنت أبحث عنكما، رأيتِ الناس أمام اللوحات؟

ـ رأيتهم، أين جابي؟

تلفتُّ حولي من جديد ثم اكتشفت أننا بحثنا في كل مكان عدا خارج الجاليري أو في المرسم أعلاه، أشرت لمالك ليصعد إلى أعلى ليبحث عنها هناك وخرجت بسرعة جهة الشارع ووجدتها هناك مع ماو يتحدثان، اعتذرت للمقاطعة وشرحت لها بسرعة ما يجري ثم اندفعنا معًا إلى الداخل ولحق بنا ماو.

أسرَعَتْ إلى البار حيث كانت هناك حقيبة سوداء وضعتْ فيها آلة الفيولين، سحبتها ووقفت في المساحة الخالية في مركز الجاليري، أراحتها فوق كتفها ثم دفعت القوس فوق الأوتـار وانسابت الموسيقى ببطء وهدوء، بدأت تتسرب وتجتاح المكان وبدأ الناس يلتفتون وينجذبون ناحيتها، اقتربوا جميعًا وتحلقوا حولها وهي اندمجت في العزف حتى بدأت تنتشي وتتحول إلى ساحرة لايستطيع أن يقاومها أحد، مع تغير بؤرة انتباههم بدأت ملامحهم تتغير أيضًا ويعودون إلى طبيعتهم، انتهت من أول مقطوعة وانطلق تصفيق وصيحات إعجاب كبير من كل الحضور، وهي رفعت الفيولين وتألقت وهي تدور حول نفسها في نصف دورة وتحييهم بطريقة مسرحية، ثم رفعت القوس في الهواء لكي يستعدوا لعزف مقطوعة جديدة، حدث صمت تام ثم أطلقت من جديد مقطوعة مرحة لأغنية شهيرة ذات إيقاع راقص، بدءوا يستجيبون للإيقاع ويتركون لأجسادهم حرية التعبير، شيئًا فشيئًا تغير الجو تمامًا في المكان وسادت البهجة.

جابي كانت رائعة وأعادت ضبط المزاج العام.

في اليوم التالي، وفي الموعد المحدد للبرنامج جلسنا أنا ومالك ومعنا ماو وموكا أمام التلفزيون، أذاعوا اللقاءات كاملة دون أي قطع ولاحظنا أن أصدقاء ماو جميعهم لم يظهروا على الشاشة، ظهر في مكانهم ظلّ باهت أبيض ومشوش، كأنهم أناس غير حقيقيين.

عادةً لا يشغلني أمر الطعام، وفي ثلاجتي في الشقة تعودت أن أترك وجبات مجهزة من خضار نصف مطبوخ أو قِطَع لحوم أو دجاج، يمرّ اليوم بطوله وأنا مطمئنة أن في نهايته ينتظرني عشاء سريع التجهيز، منذ عرفت مالك لم أرَهُ يعير الأكل اهتمامًا كبيرًا، ربما ينهمك فيما يفعل وينسى تمامًا أن يتناول أي شيء فيما عدا القهوة، أحيانًا ما كان يأخذني إلى واحد من عدة مطاعم محلية صغيرة تتناثر هنا وهناك في أرجاء المدينة، كنت أنا نفسي لا أعرفها، يذهب مباشرة إلى قائمة الطعام المعلقة على الحائط ويشير إلى واحدة من الوجبات بعينها دون غيرها، بعض هذه الوجبات كنت أيضًا لا أعرفها، أتذوقها معه لأول مرة وعادة ما كنت أكتشف كم هي رائعة ومميزة.

في نهاية حفل الافتتاح وبعد أن انصرف كل الناس انتبه فجأة والتفت تجاهي كأنه اكتشف شيئًا عجيبًا وقال إنه جائع جدًّا، كان جزء من الليل قد مرَّ ولم يكن الوقت مناسبًا لنبدأ رحلة البحث عن مطعم أو طعام.

من عند مدخل المبنى الذي أسكن فيه كانت هناك موسيقى تنساب في الداخل، ظلَّ الصوت يعلو بالتدريج كلما اقتربنا من شقتي، عند الباب تبيَّن أنه عَزْف لأكورديون وساكس، لحن خفيف ومرح مع إيقاع خافت مُصاحب.

أمام باب الثلاجة وقف يتأمل ما فيها وخرج بوجبتيْن لكليْنا وضعناهما في الميكروويف، أكلنا وهو ظلَّ يكرر هذا حتى أفرغ الثلاجة من محتواها، وأخيرًا بدا عليه شعور بالاكتفاء.

ـ لم أعرف أن عندكِ مواهب غير التصوير.

قلت وأنا أحاول أن أبعده عن الثلاجة:

ـ مواهبي كثيرة..

غلبني الضحك ولم أكمل الجملة..

ـ هل تتبنيني؟

ـ طبعًا.. أهلًا بك..

دفع يدي وفتح باب الثلاجة من جديد..

ـ لن تتحمليني..

أغلقتُ باب الثلاجة..

ـ جربني..

ـ اتفقنا..

في الفترة الأخيرة تغير شكل العلاقة بيننا كثيرًا وصارت أيامنا مشتبكة بشكل دائم، كل التفصيلات اليومية الصغيرة بدتْ أيضًا كذلك، وحلمت ذات ليلة بأنني أجلس تحت شجرة تنبت فوق ربوة صغيرة خضراء وبجواري وردات صغيرة ملونة؛ حمراء وصفراء وبيضاء، في الصباح عندما ذهبت إلى المرسم كان مالك يرسم لوحة جديدة وفي منتصفها هذه الشجرة وتحتها تلك الورود.

باب المرج الأخضر

صحوتُ على شمس قوية تصفع وجهي من بين ستائر سميكة، الجدار المقابل زجاجيّ بالكامل تغطيه ستائر معتمة، من بين شرائحها الطولية يظهر الأفق ويمتد بعيدًا إلى أن تغلقه طبقات الضباب الكثيف فوق المحيط، ظننت أنني وحدي في الغرفة وافترضت أن سكارليت نزلت لتلحق بعملها ثم تذكرت أن اليوم عطلة أسبوعية، صحتُ أناديها فأتى صوتها خافتًا غير بعيد، ثم فتحت باب الحمَّام وخرجت منه ملتفة بمنشفة كبيرة تحجبها من أسفل كتفيْها حتى ما فوق ركبتيْها بقليل، تبادلنا تحيتيْن وقُبلتيْن صغيرتيْن ومضيتُ إلى الجهة التي أتت منها، لا بدَّ أن أُغير ملابسي أيضًا، لكن هذا لن يكون متاحًا هنا، عدتُ بعد قليل لأجدها تُعِدّ بنشاط ساندوتشات للإفطار، تذكرت موكا وفي نفس اللحظة أدركتْ هي ما أفكر فيه، قالت إنها كلمت زميلتها في الفندق لكي تعتني بها وتطعمها، صباح بطعم الرعاية الشاملة.

تصفحتُ من مكاني صورها المعلقة على الحائط، مبهجة كما هي دائمًا، وقعت عينايَ على اللوحة التي أهداها لها هوجو ولاحظت أن ألوانها بهتت قليلًا وخفت صوتها، ظننت أن حالة الإرهاق التي كنت فيها جعلتني أراها هكذا، بعد أيام سأنظر إلى لوحة هوجو التي عندي في المرسم لأكتشف بها التغير الغريب نفسه.

المشهد الذي تطلّ عليه شقتها لم يكن به ما يلفت النظر، مجرد بنايات حديثة متراصة لكن تطلُّ منها شمس رائعة بشعاعات عريضة

ودافئة، جلستُ كالمخدَّر بلا إرادة لفعل أي شيء سوى تعريض نفسي لها، بلا نوايا مسبقة ولا وجهة أريد أن أذهب إليها، أقضم واحدًا من الساندوتشات وأحاول فقط أن أعيد عقلي إلى العمل، أتأمل فراغ الغرفة بهدوء وتجوب رأسي لقطات متفرقة من أحداث أمس الحافلة، وهي جلست على الكنبة المواجهة للتلفزيون الذي كان يسرد أنباء عن حرب وشيكة واستعدادات تجري لجيوش ورؤساء دول ووفود دبلوماسية وتصريحات، تناولتُ الريموت وضغطت رقمًا عشوائيًّا فجاء ناس يرقصون وقناة موسيقية، في مكان لا نراه جلس مُخرج يتلاعب بأضواء الليزر ويحاول أن يلاحق الموسيقى الصاخبة والرقص السريع، خفضت الصوت والتفت إليها.

واصلتْ هي تمشيط شعرها، بإحدى يدَيها فرشاة خشبية كبيرة تفرد بها شعرها الناعم الكثيف وبيدها الأخرى تُمرِّر المجفِّف من بعيد، استدارت قليلًا وهي تفرد جانبًا آخر من شعرها، تحت الضوء القادم من النافذة تألق لون بشرتها الفاتح وظهر جزءٌ من تاتو(*) ملون لغصنٍ رفيع تعلقت به زهرات تهبط من عند كتفها إلى أسفل، انتابني فضولٌ لتتبعه ورؤيته كاملًا، ولم أظن أنني أمتلك من الجرأة ما سوف يدفعني لسؤالها، التفتت هي ناحيتي وقالت بصوت محايد: هذه زهور تنمو في الأقاليم الشمالية من البلاد، تتميز بها مناطق بعينها ومنها بلدتي، ولا تزهر إلا في الشتاء، كانت الخطوط تنحني وتتدلل برقةٍ ولها بروز طفيف، أرسلت أصابعي لأتحسس الرسم الذي ذهب يتوارى تحت المنشفة وهي انثنت قليلًا من الخجل وانزوى جزء صغير من المنشفة أكملتُ إزاحته بأصابعي واستمرَّ

(*) تاتو (Tatto): رَسْم على الجلد للتزيُّنِ/ وشم.

غصن الزهور يتلوى وواصلت تتبعه، في النهاية وجدته ينتهي إلى منقار طائر رشيق يشبه الهدهد وله رموش وتاج من ريشات صغيرة، بدا أنه منقول من مخطوطات قديمة، وهي تحركت فانتبه الطائر من سكونه وشرع جناحَيْه، استهلك ثانيتيْن من الصمت قبل أن يقفز في الهواء ويحلق في مستوًى أعلى من رأسها بينما انتثرت الزهرات الصغيرة وطفت في هواء الغرفة، مَسَحَتْ على رأسه الصغير بيدها الأخرى فاستكان لها وأصدر تغريدًا كالزغاريد مصبوغًا بالفرح.

في زمن مُوَازٍ كانت المنشفة قد انهارت كلها فوق الكنبة التي تجلس عليها وتركتها بلا أي شيء، استدارتْ عندما تحرك الطائر فارتجّ نهداها اللذان كانا يستريحان فوق صدرها كحمامتيْن من شمع أبيض تستفيقان ذاهلتَيْن، وفي زمن ثالث اخترقت السماءَ أغصانٌ مورقة مجدولة بخيوط ذهبية وغازلت شعاعات الشمس، وفي ركن خفيّ من الغرفة اختبأ ملاك صغير بقوس وأسهم فضية في جعبة علقها على كتفه المُدَوَّر. لم أره ولكن سهمًا أو أكثر من جعبته صوّبها بدقة فأصابت هدفها ثم التأمت الأزمنة الثلاثة وجدلت لكليْنا صباحًا لا يشبه إلا مرجًا ممتدًّا أخضرَ لطيفًا تتنفس في أرجائه البهجة وتنتعش على أرضه زهرات صفراء رقيقة ترسل بسماتها إلى وجه الشمس.

القاهرة
٣١ أكتوبر ٢٠٢٣